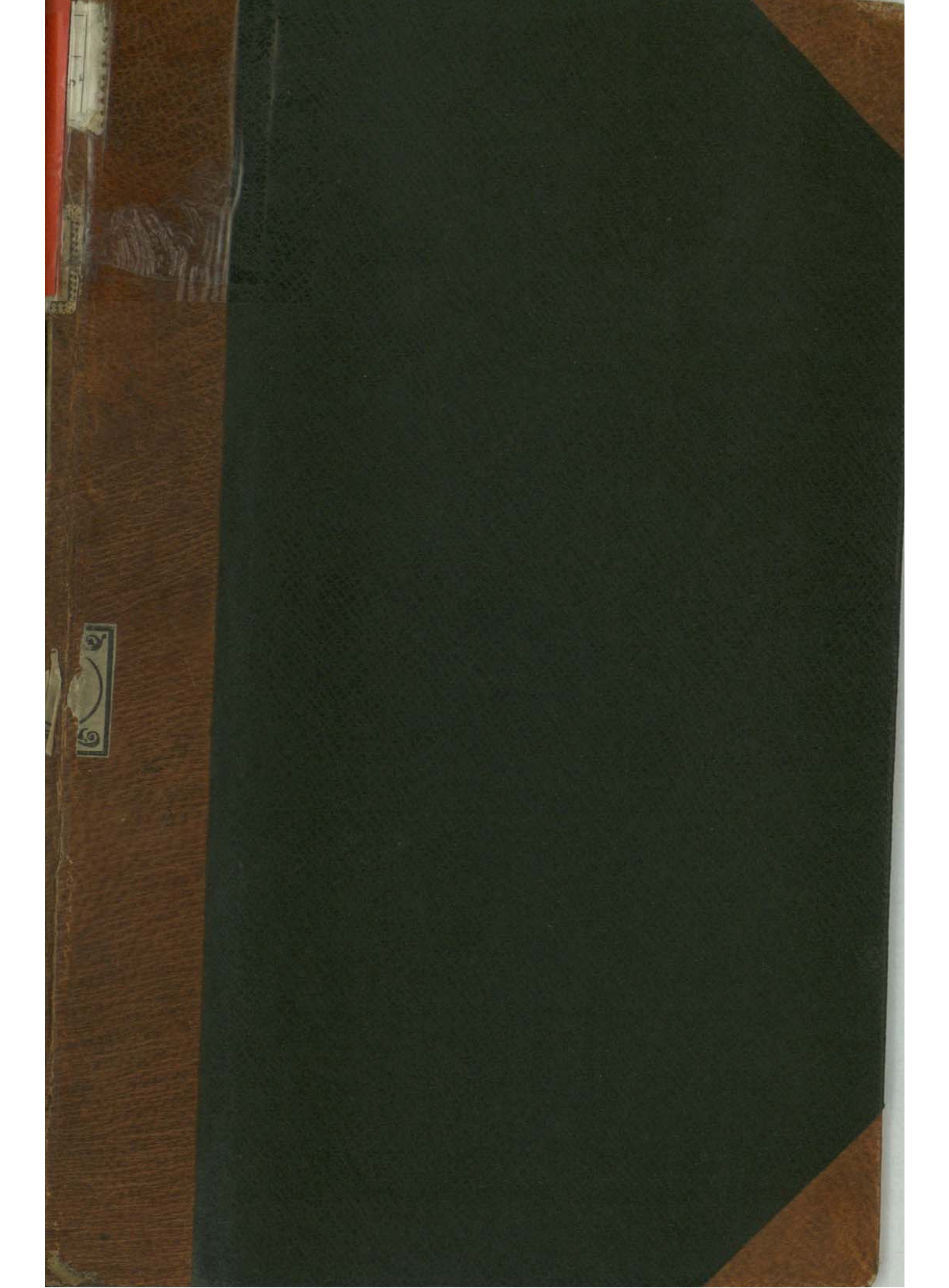
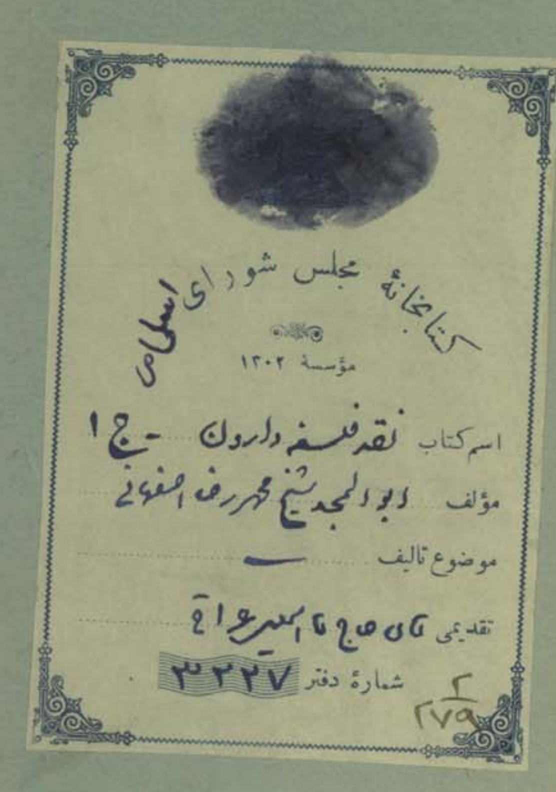
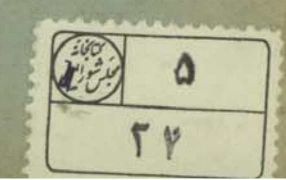
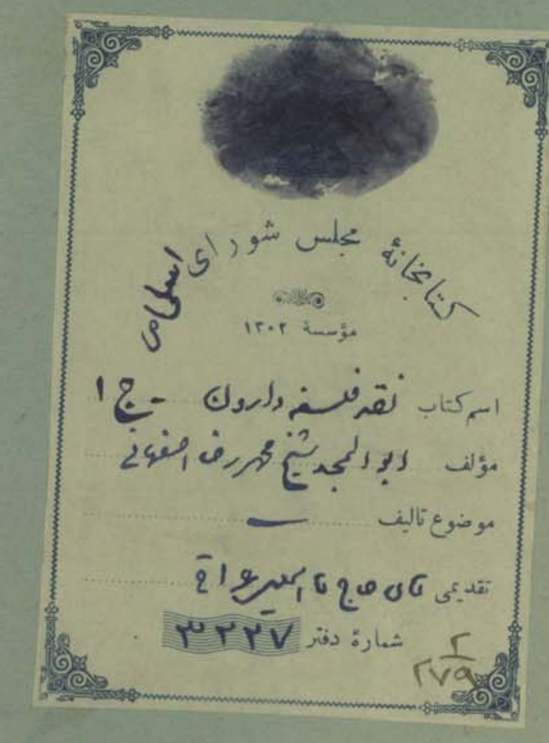
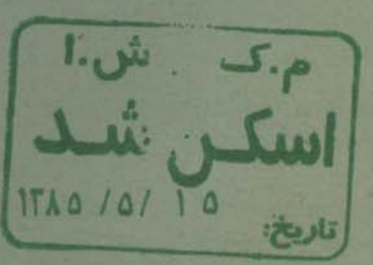










ف ١

الجزء الاول

من

كتاب

نقد فلسفة دارون

تأليف

(العلامة الفاضل ابو المجد الشيخ محمدرضا آل العلامة التقى)
(الاصفهانى القاطن فى كربلا المعلى)

طبع فى مطبعة الولاية العامرة
١٣٣١

﴿ مقدمة ﴾

(كلمة تُجاب اليها انظار عموم القرآء)

لم نتعمد في هذا الكتاب تحسين العبارة . ولا استعمال النكات . البديعة الاّ ماجادت القريحة بها من غير روية. وكثيراً ماتوخينا فيه من البيان ماكان اقرب الى افهام اهل العصر . واشبه بماالفتها طباعهم من المسالك الحديثة .ولذلك جردنا الادلة والاجوبة عن الايراد المنطقية . والبسناها حللا عصرية . وكثيراً ماالجأنا مقتضي الحال الى استعمال الفاظ دخيلة في اللغة . اومبذولة عامية . والى جمل لا تساعد عليها قواعد العربية. واناوان كنت لاابرء نفسي من اللحن. ولكن ماكان فيه من الاغلاط الواضحة التي لاتقع في كلام صغار المتكلمين باللغة العربية نحو (كبر القد وصغره) ونحو (المليس فقط وحده) ونحوها فتلك واقعة في كلام الخصم فابقيناها على حالها اورعاية المتابعة الجأتنا الى التعبير لدى الجواب بمثلها وتجنبنا غالبًا ذكر البراهين الدقيقة المبتنية على الفلسفة العالية والحكمة المتعالية للسبب الذى قدمناه ولان يعم نفعه عموم المطالعين عليه وتتم الحجة حتى على

جملة المطلعين به .

ثم اني لااكلف القرآء ان يتعصبوا الىّ في الباطل . او يقولوا بقولي قبل تمحيص ما اعتمدت عليه من الدليل. بل وايم الله لااحب ذلك . ولكن املي منهم لحسن ظني بهم ان يبعدوا عن اذهانهم الرعب الذي خامرها من هؤلاء. ويرفضوا العصبية للآراء والاهواء . ثم ينظروا الى كلامي المتناظرين لاالى المناظرين ويرونا لدى الحكومة خصمين متساويين وهذا هو المحبوب لدي . وهذه الحكومة هي المقبولة لي وعلي وهذا حق الذي اطالب به القرآء بجامعة الانسانية ان لم يكن تجمعني معهم الجامعتان الشريفتان الدينية والوطنية . واملي ايضًا انه اذا تحقق لديهم خطأ في دليل او جواب ان يبينوا لي ذلك ويرشدوني فيه الى الصواب امّا برسالة خصوصية . او بدرجه في مجلة علمية . يمكنني الاطلاع عليها . لاسدما في كتابي من الخلل .واقوّم ما اعتراه من الخطل والكمال لله تعالى وحده .

(كلمة خاصة بالمؤمنين اعلى الله كلمتهم)

الغرض الذى انشأناهذه الرسالة هو دفع شبهات المعطلين من اهل هذه الاهوآء . وايضاح ان التوحيد هو المقصد الوحيد الذى ينتمى اليه جميع الارآء . وبيان ان وجود الصانع اظهر من ان يخالفه رأي فلسفي . اونظر علمى وان هذه الارآء لو تمت فلا تفضي الى التعطيل . ومفترضاتهم ان صحت فلا تفنى عن الخالق الجليل . فكان اقرب مسالك الكلام الى ماقصدناه والصقها بما اردناه هو الجرى على اصولهم ماامكن وان كانت فاسدة وتسليمها وان كانت غير مسلمة . ودفع شبهاتهم على مقتضيات اصولهم . ومقررات رؤسائهم . فاذا بنيت الرد على اصل . اوالتزمت بفرض لدى النقض . فلا يلزم اعتقادى بذلك الاصل او الفرض . فكثيراً ماجرى فيها على امور لا اعتقدها لانها اقرب الى افهامهم وانسب بما الفته نفوسهم من مقرراتهم . وترانى اعظم فيها الاسباب ولكنى وجلال مسببها لااراها الا استاراً لقوم قاصرين . لم تستطع ابصارهم النظر الى صنع رب العالمين . واحيد عن خرق نواميس الطبيعة وانا اعلم ان القادر على خلقها لا يعجز عن خرقها . ولكن بناء الكلام على هذه

الاصول يكون على نمط آخر من البيان . تناسبه رسالة اخري تصنف لقوم آخرين . وهذه موضوعة لقوم لاتطمئن قلوبهم بغير قوى الطبيعة ولا يسلمون الا مايطابق نواميسها المعلومة . ولهذا السبب بعينه ربما اخترت فيها للجواب من مذاهب علماء الدين . ما كان اقرب الى افهامهم . واقوى على حسم شبهاتهم . وان كان مذهبي سواه واعتمادى على غيره . ثم ان نفى ضرورة الدين عن امر لايستلزم عدم الاعتقاد به . ولا عدم ثبوته فيه . اذالامور الثابتة فى الدين لا تحصى كثرةً مع ان الضروريات منها محصورة معدودة .

وليعلم ان كتابى هذا موضوع للدفاع عن الدين المطلق في قبال اللادين المحض . لا للانتصار لدين على دين والانتصاف لبعضه من بعض . ولهذا ترانى ادفع مااستطعت عن اديان لاانتحلها ومذاهب لااقول بها لان احد هؤلاء لايثلب ديناً الا وقصده ثلب الاديان عامة . ولا يزرى على شريعة الا ليسرى ازرائه الى الشرايع قاطبةً . فيقع في النصرانية ليطفي اوارغيظه من الحنيفية ويعترض على الحنيفية ليشفى احاح نفسه من النصرانية ولا يذم غيرهما الا ليسرى الذم بزعمه الى جميع الشرايع الالهية . فمن الحزم ان نردعلى

وجهه هذا الباب ونستأصل شافة الطعن على مطلق الدين في هذا الكتاب .

وفذلكة هذه الكلمة ان معتقداتي الخاصة لاتستكشف من هذه الرسالة . ولا يحل لاحد ان ينسب اليّ ما يجد فيها مخالفًا لمذاهب اصحابنا ايدهم الله تعالى . وقد قال المحقق الطوسي رحمه الله : ان معتقداتي لاتؤخذ من شرح الاشارات لانه موضوع للجواب عن اعتراضات فخر الدين على الحكماء . بل تؤخذ من التجريد . وانا اقتدي بهذا الامام . واقول ان معتقدي لايؤخذ من هذه الرسالة لانها موضوعة لتطبيق النواميس الطبيعة على الحقايق الدينية .

﴿ كلمة للمعطلين وغيرهم من اهل هذه الآراء . ﴾
﴿ هداهم الله تعالى بلطفه ﴾

كتب دارون وسائر رؤساء هذه الفلسفة كتبًا عندنا غير موجودة وبلادنا عن البلاد التي نشأت فيها هذه الآراء بعيدة . وقد طلبناها من مواضعها وكان الحزم تأخير تصنيف هذا الكتاب الى زمن وصولها لولا الباعث الديني . وظننا انه توجب علينا المسارعة . ولا يبعد ان يكون قد منعنا صغرى دليل قد فرغ هؤلاء من اثباتها او كبرى حجة مذكور في كتبهم برهانها . وانا اقترح عليهم ان يخابرونا بما يجدون فيه منه ومن امثاله لننظر فيه . ولهم علينا ان نستعمل الانصاف لا المكابرة . فانما غرضنا تمحيص الحقايق لا المجادلة . ولا عار على الانسان ان يخفى عليه ما هو في زاوية النقل . لا في خبايا العقل كما اعتذر به احد العلماء عن صاحب العروض . وللعالم في طول البحث الربح لا الخسران . كما علمتم من الفوايد التي ربحها العلم من البحث في جزاير المرجان . وما فيه من النقل . فقد تحرينا فيه اوثق ما عندنا من المصادر . ولم نذكر اسماءها غالبًا طلبًا للاختصار . فمن كان في شك من بعضه فما عليه غير ان يخابرنا لنرشده الى الاصل الذى نقلنا منه .

ولا نستبعد خطأ الناقل في فهم مراد القائل . ولا تقصير المترجم في اداء مراده . ولكننا بالارشاد الى الاصل المأخوذ منه النقل . نسقط عنا ضمان الصحة ونلقي تبعة الخطاء على ناقله فلا يثقل بعبئه غير كاهله .

ثم ان كثيراً مما وصل الينا من كتب هؤلاء ومقالاتهم ملأها التهكم والاستهزاء بالدين . وحشوه .... النبيين صلى الله عليهم اجمعين . ونحو ذلك مما ترتعد له الفرائص . وتقشعر منه الابدان . وما كان بالصعب علينا ان نرخي العنان للقلم ونقول واحدة بواحدة . والبادي اظلم . بل نبيعهم باطول من ذراعهم . ونكيلهم باوفر من صاعهم . ولكننا توخينا حسن المجادلة . الذي امرنا به في محكم الكتاب فنزهنا كتابنا عن الشتم والسباب . ونحوهما مما تثير عواصف العصبية . فتعشى العيون عن النظر الى الحقيقة العامية . وما فيه من التكذيب فانما هو للنقل لا للناقل وما فيه من التحقير . فانما هو للقول لا للقائل . وما ظاهره التهكم او الاستهزاء . فما هو الا مجون ومزاح . تجد نظائره وامر منه كثيراً في كتب العلماء . وانا مع هذا معتذر عما فيه من دعوى بداهة الفساد . ونحوها مما هو متعارف عند اهل العلم لدى الرد والانتقاد .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلوة على محمد وآله (سئلت) ثبتك الله على يقينك . وجنبك من الفتنة في دينك . عن امر هذه الآراء المنسوبة الى (داروين) المعروفة بفلسفة النشو والارتقاء (١) وذكرت ما بلغك من شيوعها عند الغربيين وانتحال جماعة لها من الشرقيين . وجعلهم ذلك اساساً للزندقة والالحاد من الجحود للصانع والانكار للشرايع ورسمت اختلاف من قبلك من اهل الدين فيها . وان قوماً يزعمون موافقتها له . وآخرون يذهبون الى مخالفتها لما علم بالضرورة منه وطلبت ان ارسم لك فيها فرقاناً بين باطلها وحقها . وميزاناً تميز به كذبها من صدقها . ودستوراً ترجع اليه اذا

(١) ويقال لها فلسفة التسلسل والتحول واصلها ادعاء ان جميع الانواع الموجودة من النبات والحيوان ناشئة عن انواع اخرى احط منها ومتسلسلة عنها وصورها متحولة عن صور منحطة بالنسبة اليها وهكذا حتى ينتهي الجميع الى اصل واحد منحط جدا او بضعة اصول كذلك ويعللها داروين بالجهاد المستمر بين الاحياء وتنازعها على البقاء المستلزم لفناء الضعيف وبقاء الانسب والاقوى على تحمل عوارض الوسط .. وسياتيك تفصيلها انشاء الله .

وقعت اليك امثالها من الآراء . وسناداً تعتمد اليه اذا دفعت الى مختلفات الاهواء . وانا مجيبك انشاء الله تعالى الى ماسئلت ومسعفك بما اقترحت . على ان الزمان كما تعلم . والقلب يقاسي من ابنائه اما الله به اعلم . وهموم القلب جرت على ناموس النشو والارتقاء ورأته وسطاً رحباً فتركت التنازع واصطلحت كلها على البقاء . ومادرت ان الوراثة منحتني قلباً قلبا على الحوادث . وحلماً لا تقرع له العصا اذا قرعت حصاة القلب الكوارث والله تعالى وحده . وهو المأمول لدفع المحذور . ونيل المأمول .

***

والكتاب منقسم الى قسمين . (اولهما) يتضمن انتقاد هذه الفلسفة من الجهة الدينية . ثم الجهة العلمية . (وثانيهما) يتضمن ذكر الدليل على الاثبات . ودحض ما لفقته المعطلة من الشبهات . عدا ما فيها من فوائد مستطردة . وتنبيهات مهمة . وجميع ذلك في طي مقالات يتخللها فصول :

المقالة الاولى

(اعلم) ان دين الاسلام على الصادع به افضل السلام قطع من الشبهات ادواراً ثلاثة في اعصار ثلاثة .

الدور الاول

في عصر صاحب الشريعة ونزول الوحي وكان قومه صلى الله عليه وسلم اميين لا يعرفون الكتاب . جاهلين البراهين النقلية والموازين العلمية فكانت شبهاتهم منحصرة في استبعادات فطرية . واستدلالات بسيطة . فطفقوا يرتبون تلك الشبهات . ويوردونها على صاحب الشريعة وتنزل في حلها الآيات فان استبعدوا المعاد .

قالوا (من يحيى العظام وهى رهيم) [سورة يس]

اجابهم الوحى بقوله تعالى :

(قل يحييها الذى انشأها اول مرة وهو بكل خلق عليم)

وان قال قائلهم :

(ائذا مامت لسوف اخرج حياً) سورة مريم

اجابه بقوله تعالى :

(اولا يذكر الانسان انا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً)

سورة الفرقان

وان قالوا :

(لولا نزل عليه القران جلة واحدة)

— اجابهم —

(كذلك لنثبت به فوادك ورتلناه ترتيلاً)

وان استبعدوا علمه تعالى بالاشياء . بين لهم البرهان الذي يحير الالباب . بالطف بيان واعذب خطاب فقال تعالى

(الايعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) —سورة الملك—

هذا بعدما عرفهم الطريق الى معرفته تارة بارجاعهم الى الفطرة السليمة وان وجوده تعالى من القضايا الاولية فقال .

(افي الله شك فاطر السموات والارض) —سورة ابراهيم—

وارجعهم تارة الى الغايات الحاصلة من الاسباب المرتبة الدالة على القصد دون الاضطرار فقال تعالى

(الله الذى يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فتري الودق يخرج من خلاله فاذا اصاب به من يشاء من عباده اذاهم يستبشرون)

(انظر بيان البرهان المستفاد من هذه الاية وامثالها فى القسم الثانى) واوضح لهم قدرته على المعاد بالف مثال :

فقال

(ومن اياته انك تري الارض خاشعة فاذا انزلنا عليها الماء اهتزت وربت ان الذى احياها لمحى الموتي انه على كل شيء قدير) سورة فصلت

ومثله لهم بقوله :

(والله الذي ارسل الرياحَ فتثيرُ سحاباً فسقناهُ الى بلدٍ ميتٍ فاحيينا به الارضَ بعد موتها كذلك النشور)

سورة فاطر

الى غير ذلك من الايات التي يصعب عدها ولا يناسب المقام سردها ولم تزل تلك الشبهات تتقشع بانوار الوحى سحابها حتى انجلى عمود الحق واضاء بنوره اكثر المعمورة في اقلّ من قرن

الدور الثاني

في عصر اوايل الخلفاء العباسيين حين نقلت علوم اليونانيين الى بلاد المسلمين . وتداولت بينهم العلوم العقلية . وعرفت الموازين المنطقية فتهافت عليها الملاحدة . والذين في قلوبهم زيغٌ . تهافت الجياع على القصاع ورتبوا شبهاتهم على الاصول اليونانية . والبسوها حلل . البراهين المنطقية . واخذوا مع ذلك يرعبون الناس تارة باعلام يونانية غريبة . واصطلاحات علميةٍ لاعهد للمسلمين بها . واخري باصاباتهم في العلوم التي مباديها حسية اوقريبة من الاحساس . كبعض الطب والرياضيات وظنوا انهم قدهدموا بذلك اركان

الدين . وبلغوا مرامهم من اضلال المسلمين . ولكن لم تدم لهم تلك الفرحة . بل عادت عليهم وبالاً وترحه . اذ كانت في تلك الآيات التي وردت للعصر الاوّل . كنوز مدخرة لهذا العصر . استخرجها علماء الاسلام . واضافوا اليها ماوصل اليهم من احاديث صاحب الشريعة . والائمة القائمين مقامه . فاجابوا عن تلك الشبهات باجوبة مطابقة لمصطلحاتهم . مبنية على الصحيح من اصولهم ودفعوا بساطع البرهان . ما كان لهم من الاصول الفاسدة ولم ينفق في سوقهم ما كان لهم من الامتعة الكاسدة . فزاد الدين بها نوراً على نور . وظهوراً على ظهور . وخابت امال الملحدين (ومكروا ومكر اللهُ واللهُ خير الماكرين) وبرزت الاصول الدينية تختال في حلل البراهين العقلية . الجامعة للشروط المنطقية وما زادها كيدهم الا حسناً على حسنٍ — لوكان ثمة موضع لمزيد —

الدور الثالث

في هذا العصر الذى قضت المصالح السياسية والعلائق التجارية . بمخالطة المسلمين بالغربيين ورأوا من انفسهم الحاجة الى اشياء كثيرةٍ من لوازم المعيشة . قد سبقهم هؤلاء الى

انقانها . اوالى اختراعها . ففزعوا الى قوم منهم . ارسلوهم
الى تلك البلاد لينقلوا لهم ما ينفعهم في المعاش . فجلبوا
اليهم . مالا ينفعهم فيه ويضرهم في المعاد وما مثلهم الامثل
قوم وقع في بلدهم مرض عام . وسمعوا بان في الغرب منهم
جزيرة اكثر نباتها مهلك سام . ولكن فيها عدة اعشاب
نافعة لهم من ذلك الداء العضال . فبعثوا اناساً منهم اليها .
وبذلوا لهم نفايس الاموال . فعمد بعض هؤلاء . فنقل
كل ماتناولته يده . من غير ان يفرق بين النافع والضار .
واخر زعم النفع مقروناً بحلاوة الطعم . وطيب الازهار .
فاجتنى . ماحلى طعمه وطاب شذاه . وكان النافع سواه .
واحسن غيره التروى . فلم ينقل الا ماجرب نفعه في امزجة
اهالى تلك الاصقاع . وعزب عن ذهنه اختلاف الامزجة
والطباع . واخر القوم كان اكثرهم تثبتاً وحزماً . فقتل تلك
الادوية خبراً وعلماً ولم ينقل الا ماجربه في اناس يقاربون
اهل بلاده طبعاً ويشابهونهم مزاجاً فنقل اصنافاً منها .
مصبوغة بالوان زاهية موضوعة في صناديق بديعة .
ملفوفة في اوراق مذهبة قد كتبت عليها حروف مستغربة .
وسماها بالادوية الجديدة فاستقبله قومه وهم يظنون انهم

نالوا بغيتهم . وظفروا بما يزيح علتهم . وقد ابهرهم حسن
الاوانى واستحكام صنعتها . واستغربوا الحروف المكتوبة
عليها . فلما اختبروها . ودققوا النظر فيها . عرفوا انها مماتنبته
بلادهم . اخذت منهم . فغيرت صورها واوانيها واعيدت
لهم فسقط في ايديهم . وعلموا انها بضاعتهم ردت اليهم .
فافهم رحمك الله المثل . واعذرني من التفصيل . واقنع الآن
مني بهذا المجمل وانظر مطابقته لحالتنا الحاضره . فنحن الآن
احوج الى معرفة الصنايع التى تعيد الينا ثروتنا . وتقلل
احتياجنا الى الاجانب وتحمى ثغور بلادنا من هجماتهم . من
معرفة كفريات (نيتشه) و(رشونبهور) والسوانح العمرية
لفلان المجنون والعلوم الصحيحة اجدر بنا من رومانات
مشوه . وجه التاريخ (دوماس) وفلسفة تؤل بنا الى السعادة .
انفع لنا من فلسفة التشأم والجد اولى بنا من كوميديات
(موليار) وحسبنا من مضيعات الوقت الف ليلة وليلة .
ورواية البطل عنترة . ولا نحتاج الى رواية (كنت منت
كريستو) ورواية (تروا موسكتر) والاولى بنا ان نتقن
العلوم التى اخذها الغربيون منا . ونتعلمها بلغتنا عن كتبنا .
ونزيد عليها ما زاده عليها هؤلاء من المسائل بعد ان ننقلها

الى لغتنا . ونضع لها رموزاً . واصطلاحات تناسب بلادنا
وطباعنا . كما فعله المترجمون عن اليونانية . لا ان نتعلم
ما يعلمه اطفالنا كالجمع والضرب باصطلاحات غربية .
وخطوط غربية . ونسميها العلوم الجديدة او العلوم الافرنجية .

(ولو كان) العلم يصير جديداً بزيادة عدة مسائل فيه .
فاذن لا قديم . اذ العلوم جارية على ناموس الارتقاء . تزداد
بسطًا وتنقيحًا بتوالى الافكار . وتزاد فيها اشياء . وان
كان الاعتبار بالاصول الكلية . فاين الجديد . على ان العالم
يكون شرقيًا او غربيًا . ولكن العلم شجرة مباركة . لا
شرقية ولا غربية . وفي جميع البلاد العدد نصف مجموع
حاشيته والخط المحدود يمكن ان نرسم مثلثًا متساوى
الاضلاع عليه . وهل الزوايا الثلاث من المثلث شابهتنا
في الرعب منهم . فهزلت حتى نقصت عن قائمتين او انهم
بحسن السياسة غيروا مقدار الفضل بين المربعين المتواليين .

(هذا) والقلم يجاذبني العنان . ويحاول الجرى في هذا
الميدان . وقد كففته بان اعود اليه في مواضع هى به احرى .
او اضع فيه رسالة اخرى .

ونقول هنا بالاجمال . ان التراجم لو بقيت على هذا المنوال

ولم تغير الدول خطتها بحسن سياستها . ولم يلتفت المسلمون
الى سوء عاقبتها . لا يمضى قرن حتى يخسر المسلمون دينهم .
ومحاسن صفاتهم . وعاداتهم من غير ان يربحوا في دنياهم .

امرتكم امرى بمنعرج اللوى فلم تستبينوا النصح الا ضحى الغد

(رجع الى ما كنا بصدده) والامر في شبهات هذا الدور
اهون بكثير من حيث العلم . لانها قصرت عن شبهات
الدور الاول . لما فاتها من رونق الفطرة . وحسن صبغتها .
ولم تلحق شبهات الدور الثانى . في قوة مبانيها . واستحكام
ادلتها . ولكن الضرر منها على الدين اعظم . والخطر الناتج
منها اشد . اذ شبهات العصر الاول كما عرفت كانت بسيطة
عامية فزالت سريعًا بمحكمات الآيات . والادلة العلمية .
وشبهات العصر الثانى كانت مبنية على اصول دقيقة .
واصطلاحات علمية جليلة . واذهان عموم الناس بعيدة عن
فهمها . وكان لا يخشى الضرر منها الا على اناس قليلين .
صرفوا في تلك العلوم اعمارهم وقليل ما هم بخلاف شبهات
هؤلاء . فانها مبنية غالبًا على تجربيات . ودعاوى مشاهدات
وقد جعلوا على طبقها اصطلاحات يسهل على عموم الناس
معرفتها وتجد واضحًا ما قلناه . ان قابلت بين مباحث

الهيولى والصورة . واحكام المعلول والعلة . وبين مباحث
هذه الفلسفة، واصطلاحاتها من تنازع البقاء . وقانون الوراثة
والارتقاء .

(وهنا) امر آخر اهم من الاول . وهو ان علوم اليونان
لم تنقل الينا الا بعد زوال عزهم . وانقراض دولتهم ولم
يكن لهم في ذلك الزمان رعب متمكن في النفوس ولا
هيبة في الصدور . ولم يكن المسلم . يلاقي روميا اويونانيا .
الا بحد السيف ومر السنان . ولا يطأ لغير السبي والنهب .
مالهم من البلدان. وآراء . هؤلاء . دخلت بلاد الاسلام .
والقوم في ابان مجدهم ومنتهى سلطنتهم . وقد ملكت
عادتهم . وصفاتهم . ولغاتهم البلاد القليلة . التي لم تملكها
سيوفهم . جريا على ناموس القوة ورفعهم الناس . فوق
مقدارهم . وكالوا لهم بما هو اوفر من صاعهم . حتى زعموا
انهم . رزقوا من العقل والذكاء . ماليس لسواهم فكأنهم
يحسبونهم ملائكة نزلوا من السماء اوجنا . انشقت عنهم
الارض . وكشف عنهم الغطاء . وصار اقوى البراهين .
في العلميات ان الافرنج يقولون كذا . وفي العمليات ان
البلاد المتمدنه يفعلون كذا . وعظم الامر وتفاقم الخطب.

حتى جرى الاصطلاح في تسمية من يقلدهم . ويتشبه بهم ،
وان لم يكن له حظ من علومهم (بالمتمدن) و (المتنور)
ونبز من يخالفهم في شيء (بالوحشي) و (الجاهل) الى غير
ذلك مما يبكي طرف المؤمن الغيور دما ويوري حشاه ضرما .

(هذا) والقلم يجاذبني العنان مرة اخرى . وادافعه وفي
النفس مافيها . وانت بها ادري .

(رجع لاتخل) ومن يسمع يخل . انى انهاك عن تعلم
مااهتدوا اليه من العلوم وتصديق مااهتدوا اليه من المسائل .
واقاموا عليه محكمات الادلة . ولا انى اشير عليك بان
تبخسهم حقوقهم . وتنكر من ذوى الفضل منهم فضله .
كيف وهذا الدين الشريف قد ادبنا باحسن الاداب . فنهانا
عن بخس الناس . في محكم الكتاب . وامرنا مشرعه
صلى الله عليه واله وسلم . بان نستعين في كل صنعة بصالحى
اهلها . وجعل الحكمة ضالة المؤمن . يطلبها حيث يجدها .
ومثلها امير المؤمنين عليه السلام . اذا كانت في غير اهلها
بدرة في فم خنزير ياخذها المؤمن . ويغسلها ثم ينتفع بها .

(ولكنى) اري لك اذا شئت الاشتغال بعلومهم ان
يكون ذلك بعد اتقانك علوم الدين . واطلاعك على علوم

الاقدمين . لئلا تقع فيما يخالف القطعي مـن النقل . اوفيما
يخالفه صريح العقل وتكون (الاولى) لك نوراً تسرى به
في حنادس الشبهات . (والثانيه) ميزاناً تميز به البراهين
من المغالطات. ثم تبعدعن ذهنك ماخامره من رعب هئولاء .
وتكرر عليه انهم بشر يجوز عليهم الخطأ . وان من الممكن
ان لايصل احذقهم الى حقيقة امر ويصل اليه مـن غـيرهم
سواه . فالناس اشكال واشباه ولا يهولنك غرابة اسمائهم .
وطول القابهم . فلليونانيين اسماء غريبة والقاب طويله .
ولاتسلطهم على الممالك . فالتتر من اجهل الامم . وقدفتحوا
من البلاد ماتعلم . ولاماتراه لهم من دقيق الصنعة . وبديع
الاختراع . فبين الصنعة والعلم مهامه تنقطع فيها اعناق الخيل
العتاق . والعالم بـدقائق العلوم التى مبانيهـا محسوسات
اوتجربيات . فضلاً عن العامل لاتقن الصناعات قديعجز
عن حل الواضح من العقليات . ثم لاتصدق كل ماينقلونه
من المشاهدات . فان فيهم من يشتبه حتى في المحسوسات .
بل فيهم ولا سيما في زنادقتهم من يتعمد الكذب والتزوير .
انتصاراً لمذهبه واحتجاجاً على معتقده . ويمر عليك قريباً
انشاء الله تزوير هيكل الالماني للصور الجنينية ليحتج بها

على مذهبه في النشو والارتقاء وبعد ذلك فانظر فيها ان شئت .
(واعلم) ان عليك حقين . حق للدين وحق للعلم . فمن
حق الـدين ان ترفض كل مايخـالفه . اويخالف المعلوم
بالضرورة منه وتنزل الدليل الذى دل عليه بمنزلة الشبهة .
فان استطعت دفعها والا رجعت بها الى من يفوقك في العلم .
ليعرفك موضع الغلط منه . فانه لايقين اقوي من الدين .
ولا مخبر اصدق من النبيين . وليكن ذلك بعد الجهد في
معرفة ضروريات الدين من غيرها . وتميز الثابت فيه من
الملحق به . واياك وان تعدمنه كل ما تقوله الحشوية والعوام .
فتدخل فيه ما شرع الدين لاخراجه من الاوهام . ويكون
ضررك على الدين . لا يقصر عن الملحدين . ومن حق العلم
ان تضع كل مسئلة موضعها . من الشك واليقين . فلا تلحق
بالقطعيات ما دليله الحدس . والتخمين . وان تحذر من ان
يقودك حسن الظن بالقائل الى تسـامحك في تمحيص ادلة
المسائل . او يقضى بك الرعب من اقوى القائلين . الى التعصب
لاضعف القولين . ثم سر على السنة التى سنها العالم لنفسه
من التثبت التام في النقليات ومراعات اصول البراهين
في العقليات . وليكن بين برديك شرقي يحب الشرقي . ولا

يبخس الغرب حقه . عراقي يتبع الحق وان شام غربياً برقه .
وبين جنبيك قلب غير نكس . ولا جبان لا يرعبه غير قاطع
البرهان . حر الفكر لو قيل عنه اجتهد فاخطأ احب اليه
من قلد فاصاب . ثم اقرع للعلم ما شئت من الابواب .
(فلننظر) الآن بعون الله تعالى في هذه الفلسفة من الجهتين .
ولنقدم حق الدين فانه اعظم الحقين .

(النظر الى هذه الفلسفة من الجهة الدينية)

(فنقول) اما اصل هذه الفلسفة اعني (النشو والارتقاء)
في الجملة عدا ما فيها من التطرفات المنافية لضرورة الاديان
(وهي عدة مسائل اهمها مسئلة اصل الانسان كما ستعرف)
فليست مما تنافي الدين . اذ الذى يوجب علينا اعتقاده هو
ان جميع الموجودات باراضيها وسمواتها وما فيها من
صنوف المخلوقات من نباتاتها وحيواناتها والبشر على
صنوفها واختلاف لغاتها صنع الواحد . قادر حكيم . قد
وسع كل شئ علماً . واتقنه صنعاً . خلق جميع الاصناف
من جميع الانواع عن قصد واختيار وهذا امر متفق عليه
في جميع الاديان .
واما كيفية الخلق . وان هذه الانواع كلها خلقت خلقاً

مستقلاً ووجدت عن كتم العدم ابتداءً . وانها لم تتغير عما
كانت عليه في اول الخلق . فهذا امر لم يرد فيه نص صريح
من الكتاب ولا متواتر من السنة . وسواء كانت آباء
الجمل جمالاً . او كانت ضفادع تنق في الماء . والجد الاعلى
للفيل فيلاً . او سنونواً يطير في الهواء . فان ادلة الصنع عليهما
في الحالين ظاهره وفيهما على وجود الصانع الحكيم آيات
باهره ففرحة الملاحدة بهذه الاراء وجعلها اساساً للالحاد من
اغرب الاشياء .

(ونزيدك) ـ توضيحاً ـ ونقول ان هذه الاراء على علاتها
وضعف ادلة اكثرها . كما تعرفه انشاء الله تعالى في النظر
الثاني ليس فيها الا بيان ترتيب المخلوقات وكيفية الصنع
فيها ومتى كان اهل الدين ينكرون ذلك ويدعون ان الله
تعالى خلق جميع الاشياء في وقت واحد . خلقاً مستقلاً عن
الآخر . وهم يرون انه تعالى بلطايف حكمته . وبديع
صنعته . يخلق الثمر من الشجر . والشجر من النواة . ولا
يجعل العنب حلواً الا بعد ما يجعله حامضاً . ولا يجعله حامضاً
الا بعد ما يجعله مراً . ولو فعله جاهل منهم (وحاشاه ان
يفعل) فاي نفع له في ذلك سوى انه اطفأ بجهله انوار الادلة

الدالة على حكمته . واتقان صنعته . وسعة علمه . وشوش النظام الذى لم تزل العقلاء من اول زمان وجد فيه البشر الى الآن يتفكرون فيه . ويستخرجون حقايقه وكلما تقدموا خطوة في معرفته ازدادوا اعتقاداً بصانعه . وتعجباً لعظيم قدرته . وهم يعلمون انهم ما علموا منه الى الآن الا قليلاً من كثير . وانه تأتى الاجيال الآتية . وتسير على سننهم وتستخرج منه ما خفى عنهم حتى يفنى البشر . ويكون ما خفى عنهم اضعاف ما ظهر .

— كامل —

(وعلى تفنن واصفيه بحسنه يفنى الزمان وفيه ما لم يوصف)

(ولئن) كان في هذا النظام الاعلى والترتيب البديع حجة للمعطلين على مذهبهم . فالأولى لهم ان يستدلوا (بالنشو والارتقاء) الفردى . الذى يشاهده كل احد . فيستدلوا مثلاً بترتيب خلق الانسان . وتنقله عن مراتب كثيرة الى مرتبة النطفة او البيضة ثم المراتب التى يقطعها في الرحم . والطوارى الكثيرة التى تعتريها فيه . الى ان يخرج طفلاً . ثم تنقله في مدارج الحيوة الى الممات . وليدعوا هذه التنقلات الخفية في الادوار الثلاثية وما ترتب على الادوار الجيولوجيه من الاختلافات الحيوانية ونحوها مما كثير منه وهم وخيال .

والصحيح من ادلتها مدخر في بطون الارض وظهور الجبال وان لم يكن لهم نفع فيه فليدعوا هذه الفلسفة المسكينة . ولا يجلبوا شوماً عليها . لتبقى بريئة من لوث الالحاد الموجب لأن تكون غرضاً لسهام الرد والانتقاد وتكون كساير اخواتها مجالاً لافكار العقلاء . اعنى الملليين يوضحون دلائلها . ويمخضون حقها من باطلها . فتجرى على ناموس الارتقاء . حتى ترتقى ذروة مجدها . وتبلغ اقصى شرفها . ولعمرى ما اساء قوم الى فلسفة كاسائة هؤلاء الى هذه الآراء . اذ جعلوها ام الفساد . وجعلوا لفظ النشو مرادفاً للالحاد وكأن (دارون) علم ما يلحق فلسفته من مخالفة الدين . فصار يقول في كلامه اعتقاداً او مصانعة (ان جميع هذه الاجناس اصلها من خمسة او ستة نفخ فيه الخالق روح الحيوة) ولكن الجهال من تلامذته رفعوا هذا الستار . وجلبوا عليه وعلى فلسفته اعظم العار . ولقد انصف احد اتباعه حيث قال :

ان تلامذة (دارون) لم يقفوا عند هذا الحد بل تجاوزوه الى ما اسخط العالم عليهم وعلى (دارون) من اجلهم .

ومن ذلك يظهر السبب فيما تعجب منه هذا القائل في

جملة كلام له يقول فيها . (ان النشو لا يقتضى انكار الخالق والباحث فيه من حيث انه ناموس طبيعى لا ينبغى ان ينصرف الى ما وراء الطبيعة) الى ان قال (ولست ارى من داع للرعب الذى استولى على كثيرين عند سماعهم بالنشو . لأنه لا يغير شيئاً من الدين الحقيق) الى آخر كلامه وحاشا المؤمنين من الرعب من هذه الآراء . وانما هو مقت سببه تلامذة (داورن) بتجاوزهم الحد كما اعترف به .

وبالجملة فان هؤلاء المعطلة يكرون على ما لو عقلوا لفروا منه ويميلون الى ما يحق لهم ان يحيدوا عنه . كان خصمهم يستدل عليهم ببديع هذا النظام . والترتيب في الخلق الذى حير حسنه الافهام . فلم يجدوا ملجأ الآ بان زادوا (النشو والارتقاء) في الانواع على حسن الترتيب و (النشو والارتقاء) الظاهر في الافراد فكان لخصمهم دليلاً ثانياً يصول به قائلاً ذكرتنى الطعن وكنت ناسياً . ولا غرو فالحق يتضح في جميع الحالات . والباطل يزهق والشق بكل حبل يخنق . ولعمرى ان هذه الآراء لو تمت وسلمت ادلتها من الانتقاد لكانت ابدع في الصنع . واحكم

وادخل في النظام الاتم .

ولهذا ترى اعظم رجالها . وعقلاء اربابها . معترفين بوجود الصانع الحكيم . ومتنزهين عن وصمة التعطيل .

﴿ اعتراف علماء فلسفة النشو بالصانع تعالى ﴾

﴿ لامرك ﴾

هذا (لامرك) الذي له الفضل الصحيح وحده — في هذا المذهب كما يقول (بختر) شارح مذهب (دارون) بل الذي لولاه لم يكن (دارون) ويصح ان يعتبرا بالمذاهب ومؤسسه الاول كما يقوله معرب شرح (بختر) في مقالة له افردها لترجمته — هذا الفيلسوف يسلم بوجود الله سبحانه وينسب اليه وجود الهيولى المركب منها الكون . ولكنه يقول انه تعالى بعد ان خلق الهيولى بخصائصها لم يفعل شيئاً وان الحيوة والاجسام الآلية والعقل جميعها نتائج الهيولى ونتائج قواها

فهذا الرجل لا يخالف اهل الدين في وجود الخالق . بل يخالفهم في كيفية الخلق .. على انك لو اعطيت هذا الكلام حقه من التأمل لوجدته لا يرجع الى محصل . الا ان يكون المراد منه عين ما يعتقده . علماء الاديان . وانه لا يخالفه الا

في قبح التعبير فقط . وهـذا مما لا يؤاخذ به (لامرك)
واضرابه ممن لم يضرب في العلوم العالية بسهم . ولم ترسخ له
في علوم الدين قدم

﴿ ولس ﴾

وهذا (الدوكتور ولس) شيخ علماء الطبيعة وشريك
(دارون) في هذا الاكتشاف بلا خـلاف بلغ من شدة
الاعتقاد بالتوحيد ان صنف كتابا فيه وسماه كتاب (عالم
الاحياء) قال (المسترستد) لو قلت لرجال الدين منذ اربعين
سنة ان شريك (دارون) في اكتشاف ناموس النشو يؤلف
كتابا يقيم اقطع الادلة واصرحها على الوهية الخالق وازليته .
وعنايته التامة بمخلوقاته . لهزأوا بك وقالوا هل يخرج من
الناصرة رجل صالح . ولكن خرج المسيح من الناصرة .
وصدر من عقل (ولس) (كتاب عالم الحيوة) وما من كتاب
ديني ادلته اقطع من هذا الكتاب . فهو وحي يرحب بنوع
الانسان اعظم ترحيب (انتهى)

ويعجبني من كلامه قوله بعد ان شرح كيفية وجود الاحياء
ونشو بعضها من بعض (ان وجود هذه الاحيـاء يستلزم
وجـود قوة محييه مرشدة مدبرة . فيستلزم وجـود قوة

خالقـة . اوجدت المادة على اسلوب يجمل حصـول هذه
التنوعات من الممكنات وثانياً وجود عقل مرشد . لانه
لابد من الارشاد في كل درجة من درجات النشو . وثالثا
لابد لهذه القوة الخالقة من غاية ترمى اليها فيما خلقته ودبرته
في هذا الكون الوسيع مدة في كل العصور الجيولوجية .
الغابرة والحاضره . وعندى ان هذه الغاية التى قصدتها القوة
الخالقة هى الانسان . خلاصة المخلوقات وبذلك يفسر كثير
من غرايب النشو والخلق والانسان هو المخلوق الوحيد
الذى يفهم شيئاً من نواميس الطبيعة . ويستقصي افعـالها
ويدرك قيمة القوى التى فيها . ويستنتج منها وجود العقل
المتسلط عليها .

وانما استحسنا كلامه في اصل اثبـات الخالق . ولزومه
لمذهب النشو . لا ما وقع في تعبيره عن الصانع تعالى بالعقل
ونحوه . وما في كلامه الذي لم ننقله من تصـوره ملائكة
مخلوقة لله خالقةً لما دونها . ومقام (ولس) فى هذه الفلسفة
ظاهر لدي المطلعين من اهلها وغيرهم . وهو سـابق على
(دارون) في اظهارها وقد كتب اصولها في مقالة . وبعثها الى
(دارون) وطلب منه ان يرسلها بعد اطلاعه الى (ليل)

وبعد ذلك بادر (دارون) ونشر هذا الرأي في مقالته وقدمت
الى الجمعية الليثيوسية فقرأت فيها خلاصتها مع خلاصة
مقالة (ولس) في وقت واحد سنة (١٨٥٨) وهي سنة ظهور
هذا الرأى وقبل سنتنا هذه ببضع سنين عيدت الجمعية
المذكورة تذكاراً لمضي خمسين عاماً من اشهارهما هذا الرأي
ومنحت وساميها معا اعاظم الفلسفة الذين اختارتهم لهذا
الاحتفال (كهوكر) و (هيكل) و (غالتون) وقد نشرت
الجرايد والمجلات العلمية امر هذا اليوبيل ونقلت الخطب
التى تليت فيه واشاعت صورة الوسامين

﴿ هكسلى ﴾

وهذا (هكسلى) الذى قيل فيه انه سعى في نشر مذهب
الارتقاء اكثر مما سعى (دارون) نفسه ومقامه في هذه الفلسفة
ظاهر لا يحتاج الى اطالة بيان وقد قيل ان (دارون) كان
يحسده وناهيك بمن كان (دارون) احد حساده ..... هذا
الرجل وان كان ممن نابذ الاديان . ولكنه لا ينكر الصانع
تعالى . ولا يرى مذهب الارتقاء منافيا لوجوده . ومن قرأ
كتابه المعنون (داروينا) علم انه اقر هنالك على رؤس
الاشهاد . بانه يستحيل نقض الالوهية بحسب مذهب

الارتقاء . ومن تمعن في مقالته التى كتبها الى (ده كارت)
علم انه جلى هنالك عن رسوخ في حقايق الفلسفة مسنداً
تعاليمه الى ادراك القوة الفاعلة فى هذا الكون .
ولا يقصر على هذا من القول . بل يشهد على المعطلين بالا
يزيد عليه مقال المؤمنين . ويقول في مقالة له ما نصه (ان
من ينكر وجود الاله كما تصوره (سبينوزا) لاحمق)
وهذه الشهادة لو كانت من اهل الدين لهان امرها على المعطلين
ولكنها شهادة امام مذهب الارتقاء . والد اعداء الاديان
واحد من ينسب اليه الالحاد .
ومما يحسن التنبه له ويقتضى المقام التنبيه عليه . هو ان
هذا الرجل وان كان قد وضع كلمة (اغنستك) اى اللاادري
وانتحالها فاوجب ان يعده المترجمون له في صف المتحيرين
ولكنك بعد التأمل في مجموع كلماته . والبحث عما دعاه
الى ذلك تجده معتقداً بالله تعالى اعظم اعتقاد ومؤمنا به
اشد ايمان . وانما اراد بذلك الاعتراف بانه لا يعرف سر
الخليقة . وان عقله يقصر عن فهم بعض الحقائق الدينية
فكأنه يرى العلم خصوص ما يعرف بالعقل معرفة تفصيلية .
ولا يعد منه ما يعرف بالدين او يعرف بالعقل اجمالا . فهو

بهذا الاصطلاح (على سماحته) لايخالف اهل الدين .
لانك لاتجد في عقلائهم . من يدعى معرفته اسرار الخلق .
وجميع حقايق الدين . معرفة تفصيلية بالعقل فقط .
ويتضح لك ذلك اذا تاملت خطبة (سرجون لبوك)
وهو من اعظم اصدقائه واعرف الناس به وشريكه في مناظرة
اكسفرد الشهيره سنه ١٨٠٦ وفي تحرير مجله التاريخ الطبيعى
وفي عدة جمعيات عمليه كجمعية ماوراء الطبيعة التى انشأت
١٨٦٩ وقدتروعك تلك الخطبة لما في ظواهرها من المناقضات
ولكن التامل فيها يريك ماقلناه واضحاً جلياً . ولا يسع
المقام نقل تلك الخطبة فاطلبها من مظانها وراجعها ان شئت .
ويكفينا ان نقول كيف يعد (هكسلى) متحيراً في امر
التوحيد وهو القائل بنقل (سرجون لبوك) المذكور
مالفظه .

لست من الماديين لانى لااقدر ان اتصور وجود المادة من
غير وجود عقل يكيف صورة وجودها ولا من المعطلين
لان مسئلة العلة الاولى من المسائل التى لاتدركها عقولنا
القاصره على ماارى . ويقول ايضا لست من الذين يقولون
ان كل الاشياء تفعل معاً للخير ولكنى واثق بان الحكم

الالهى عادل تمام العدل . وقد كتبت زوجته على قبره ثلاثة
ابيات يظهر منها معتقدة وحاصل معناها .
لاتخافي ايتها القلوب الباكية لان الله تعالى يعطي حبيبه
نوماً واذا اراد ان يكون هذا النوم ابدياً فهو الاحسن .
نعم كثيراً ماكان ينابذ علماء الاديان . ويناقشهم في
الامور الجوهرية الثابتة فيها وهذا امر غير مانحن فيه على
انه كان يكرم التوراة ويقول انه الكتاب الوحيد الذى
يرى الانسان نفع الصلاح وضر الطلاح بامثلة كثيرة ترسخ
في النفوس . ويقول انا لا اعرف غير التوراة مقياساً علمياً
لحفظ الشعور الدينى الذى هو الاساس الجوهرى لسلوك
الانسان في هذا العصر عصر الارتباك والاضطراب في
الاراء والافكار . وقد اقر على تدريسها في مجلس ادارة
المدارس مع انه خالف في هذا القرار ستة ثلاثة منهم من
الكاثوليك . ونقل عنه (مكفرصن) ان (هكسلى) جارى
(مل) في ان كل ماقيل عن المعجزات ممكن اذا اقامت الادلة
على حدوثه . وجاراه ايضا — على ظاهر النقل — في انه لا
يوجد مايمنع الخالق من تغيير نظام الكون وقلب كل مافيه
رأساً على عقب وقت مايشاء .

(سنبسر)

وهذا سنبسر الذي يطريه اهل التعطيـل غاية الاطراء
ويعرفون (كغيرهم) مقـامه في مذهب الارتقاء حتي قالوا
ان رأسه قد امتلأ من مذهب النشو قبل ان يخط (دارون)
حرفاً واحداً من كتابه — وقال فيه (برنارد) (وكذب فى
مقاله) انه اعظم من قام في الارض حجى واوسع بنى البشر
عقلاً ونهي . وتحير الاستاذ (مكوش) . الاميركي في قوة
عقله فكان يقول ان عقله جبار العقول . ترى في كتابه الذى
قدر تمامه في عشرين سنة فلم يتم في اقل من اربعين سنة انه
يقسم الوجود الى قسمين.

(الاول) فيما لا يمكن معرفتـه (والثانى) فى نواميس ما
يمكن معرفته وخلاصة رايه في القسم الاول . ان ادراك
الانسان محدود . فاذا بلغ حده استحال عليه معرفة ماوراء
ذلك . وان في الطبيعة قوة يستحيل على العقل البشرى
ادراكها ويرد كل المسائل المتعلقة بواجب الوجود . وعلة
العلل او العلة الاولى والغاية الاخيرة الى الدين . اوالى مالا
يدرك بالعقل . البشري اوالى ماهو وراء الطبيعة . لان العقل
مقيد في بحثه بقيود لايستطيع حلها فلا يستطيع الوصول

الى كل الموجودات ولذلك فما يستطيع العقل ادراكه
محصور في العلل الثانوية والغايات الثانوية اى في الاسباب
التى نراها مباشرة للمسببات . وفي النتائج التى نراها تنتج
عنها . ومن فلسفته ان لكل انواع الموجودات تاريخاً يشمل
كل الزمن بين خروجها مما لا يدرك بالعقل وبين عودها
اخيراً الى مالايدرك به .

وستعرف في موقعه من هذا الكتاب انشاء الله ان المسافة
بين هذا الكلام و كلام اهل الايمان قليلة بل هو الاعتراف
بالتوحيد لكن بعبارة سقيمة لأن العلة الاولى او القوة التى
يستحيل ادراكها على العقل البشري لابد ان تكون من
غير جنس قوى المادة وان تكون فوق عالم الطبيعة والالما
استحال عليه ادراكها ولكان من الممكن ان يدركها كما
ادرك ساير اخواتها . فثبت ان فوق عالم الطبيعة وجود
يقصر عنه الفكر ويستحيل دركها على عقول البشر وانه
هو العلة الاولى التى صدر منها ماسواها وهذا عين معتقد
اهل الاثبات وهو بارجاعه البحث عن هذا الوجود
المقدس الى الدين او الى ماوراء الطبيعة قد ارجع الامر
الى محله وجعل الحكم فيه الى اهله وفعل ما هو اللائق بمثله.

ودارون نفسه لا ينكر الخالق. وقدمرّ كلامه وقال ايضاً
في (كتاب اصول الحيوة) (ان بعض الافاضل يظهرون
اقتناعهم التام بان كل نوع خلق بطريقة مستقلة . امّا انا
فعلى مايظهر لي ان مانعرفه من النواميس التي فرضها الخالق
على المادة يطابق بالاكثر ظنا) واقصى مانقل عنه التحير
في التوفيق بين وجود الصانع وبين ثبوت صفة الرحمانية
له تعالى . وذلك لعجزه عن ادراك المصالح في خلق ما يرى
انه شرور . لازعمه منا فانه لمذهب النشو . وتصدى هذا
الرجل لهذه الشبهة مما يعاتب فيه . لتعاطيه مالا يدخل في
فنه . وتكلفه ما ليس عن وظيفته فان حل هذه الشبهة
وامثالها شأن العلوم الدينية وعلم ماوراء الطبيعة ولاتحل
عقدتها بما صرف فيه نقد غيره من جمع صنوف الزيزان
وتربية الحمام ونحوهما من تجاربه التي لا تجديه الاّ في
آرائه .

(ومن غريب الاتفاق) ان شريكه (واس) حاول دفع
هذه الشبهة فوقع في مخالفة الوجدان ومصادمة العيان من
الالتزام بعدم تألم الحيوان وقد اتى هذا من حيث اتى

(درون) ايضاً وكان الاولى لهما ان يدعا لغيرهما هذا المجال
ويقولا لكل فن اهل ولكل علم رجال او يقولا كما قال
(هكسلي) وانا واثق بان الحكم الالهي عادل تام العدل
كما تقدم .

ولوشئت سردت لك من اسماء علماء هذه الفلسفة . وزعمائها
ذاكراً نتفاً من كلامهم في الاثبات . حتى لا يبقى منهم
الاشذاذ جهلوا معنى الايمان. اولم يعرفوا مقتضى هذه الاراء .
ولكني ارى ان اقتصر على هؤلاء الذين تعزى اليهم هذه
الفلسفة وتفتخر بالانتساب اليهم . وهم بين حائز وسام
الاختراع وبين ملحق بهم بحسن الاتباع . واكتفي بهم عمن
لا يصدر الاّ عن آرائهم ولا يرد سوى فضل انائهم . ولا
يمتح بغير دلائهم .

(ومن الطريف) ان احد المعطلين الشرقيين من مقلدة
(درون) كتب مقالة ينصح المليين فيها بزعمه . وما درى
انهم ببركة الدين . في غنى من نصحه . ويبين فيها ان مذهب
النشو لا ينافي الدين . واهله اعلم بما ينافيه . وما لا ينافيه .
(يقول فيها) ان الدين اوسع من ذلك . وانه ليس من
مصلحة الدين . ان يقف في طريق العلم . الى آخر كلامه .

الذى ارعد فيه وابرق . وليس في نقـله الاّ تضييع الحبر والورق . اما قوله ان الدين اوسع من ذلك . فهو كامة حق اراد بها باطل . ومرامه كجوابه . لا يخفى على متأمل عاقل . واما قوله ليس من مصلحة الدين ان يقف في طريق العلم . فلو عقل وانصف لعرف انه ليس من مصلحة ما يسميه علماً ان يقف في طريق الدين . فانه كما تعلم آراء مبنية على ناقص الاستقراء . وتعليلات تختلف باختلاف الاراء تبنى زماناً ثم تهدم . وتبرم ثم تنقض . . تمر على الناس ايام يرونها احسن . ما تعلل به الاشيآء . فيأخذون بهـا . ويظفر قوم بعدهم باحسن منها . فيعدلون عندها . فكان لكل تعليل من تعليلات نظام الكون دولة تحكم زماناً على العقول . وتقهر سواها . وتتفق الارآء على انه لا محيص عنها . ويحسب الناس انها من الحقايق الثابتة التى لا تزول . ولا تصل الى احسن منها العقول . ثم لا تلبث زماناً الاّ ويأفل نجمها . وتسقط دولتها . ويقوم سواها . فتحكم كسابقتهـا حتى تنقضى ايامها . ويقوم غيرها مقامها . هذا نظـام سكون الارض وحركة الافلاك . حكم على علماء العالم اكثر من الفى سنة . وكانت تعد من الواضحات . الملحقة بالاوليات . ويعدّ المنكر

لها كالمنكر للبديهيات . فكم ملئت الكتب من اوضاع الافلاك وكيفياتها وعدد تداويرها وممثلاتها . ثم انقضت ايامها فسقطت وقام بعدها نظام حركة الشمس حول الارض وحركة السيارات حول الشمس . ولم تطل ايامه حتى قام نظام حركة الارض والسيارات جميعاً حول الشمس .

والله سبحانه وحده هو العالم بما يكون بعده . وكانت الحرارة المركزية هى التعليل الوحيد لتكون البراكين وحدوث الزلازل الى ان قام (اللورد كلفن) فعلله بغيره ووافقه (دارون) الى غير ذلك مما احصاؤه خروج عن مقتضى المقام ودع ان شئت جميع ذلك .

وانظر الى هذه المادة التى نسبوا انفسهم اليها تعظيماً لها وقصروا الموجود عليها . وكفروا بالله تعالى ايماناً بها واثبتوا لها اخص الصفات الالهيـة من الازلية والابدية واتفقت آراؤهم على عدم ملاشاتها . كيف تناولتها يد الغير واضحت في تاريخ العلم من اعظم العبر (١) فاثبت (غوستاف لبون) ملاشـاتها واضمحلالها واشكالهـا (هبس) و (مابرتش)

(١) لا يخلو بعض ما نقلنا من المسامحه . ويمكن ارجاع بعض هذه الاقوال الى بعض . ونحققه ان شآء الله في نقدنا لكتاب بخنر

و(طمسن) جواهرها الفردة العزيزة لديها المتركب وجودها
منها . فقالوا انها نوع من الحركة في الاثير او اضطراب فيه
او حلقات كذلك بل نفاها (غوستاف لبون) المذكور
وجعلها مخازن للقوي الهائلة وجعلها (اسبرن دينلدز) خللاً
في انتظام دقائق الاثير . ولدى الحقيقة انكر هؤلاء وجودها
وعدلوا عن المعبودة هذه الى الاثير خادمها الذى لم يفرضوا
وجوده اولاً . الا لان يكون ميداناً لحركتها ومرآة
لمظاهر قوتها . فلينتظر الاثير يوماً عبوساً يلاقى فيه مالاقته
المادة . فسوف ينزلونه عن سرير المادية والفاعلية ويسلبونه
ردآئى الازلية والابدية ويسحبونه قسراً الى مشنقة التجزأ
والملاشات بل ينكرون وجوده رأساً كما فعله (بونكره)
ويقيمون غيره مقامه وكل آتٍ قريب . وكما قضوا على المادة
بملاشاتها سلب جماعة وصف البساطة عن جواهرها وجعلوا
كل واحدة منها مركبة من مأتى الف جزء من الكهربائية
الايجابية عدا مافيها من السلبية (الاليكترون) فلتبك
المادة على نفسها ولتنظر الفرق بين يومها وامسها .

ولو ان ما اصاب المادة كان مقصوراً على نفسها لهان على
الفلاسفة الاحدثين امرها ... ولكنه بنيانُ قوم تهدما .

عمد الى ماالفقوه اعصاراً ودهوراً فجعله هباءً منثوراً ولقد
نعى الاستاد (دولبر) اليهم علومهم وصرح بانهم بعد السير
الى نحو الكمال مدى السنين الطوال واقفون حيث كانوا
ونحن نسمعك كلامه مع كمال الاسف على تلك الصروح
الممردة للفلسفة والقصور المشيدة للعلم التى فاخروا بها مابناه
الاقدمون زمناً طويلاً . وهذا لفظه (ظهر من ابحاث بعض
العلمآء وتجاربهم ان المادة تفقد بعض ثقلها فى احوال
معلومة بتغيرات طبيعية تطرؤ عليها لابازالة بعض دقائقها
وهذا اذا صحّ يفضى الى انقلاب عظيم فى العلوم) الى ان
قال (ثبوت الجواهر اى عدم تغيرها في مقدارها ونوعها
اساس التصورات والآرآء الصحيحة في كل فن ومطلب
فاذا انتقض هذا المذهب بقينا حيث نحن الآن وحيث كنا
من قديم الزمان)

هذا والدين هو الثابت الذى لا يعترى حقاً ثقة الزوال
ولا تتبدل على مرور الاعصار . فكل حقيقة اخبر بها اول
المرسلين . يؤكدها خاتم النبيين . والجميع قد اخبروا بوجود
الخالق العظيم . ووحدة ذاته . وبديع صفاته . ووجود الملائكة
وثبوت المعاد والحساب والعقاب . الى غير ذلك من الحقائق

المعلومة من الاديان . فهل ترى اختلافًا بين النبيين كما تشاهده بين الطبيعيين . وهل يهدد الدين بمثل هذه الآراء الموقتة ام على الوحي يخشى من خيالات (دارون) فليعلم هذا المهدد ان الكون لو سرى على ناموس الارتقاء في اضعاف ما قطعه من الزمان . وجادت كف الانتخاب بقوم السبرمان (١) واتى اناس نسبة هؤلاء اليهم نسبة القردة الى الانسان . ثم اجتمعت اراؤهم على محاربة حقيقة من حقائق الدين . لم تنجلي الغبرة الا عن فلجة وفشلهم اجمعين . وفي المخالفات التي كانت بين البراهين اليونانية . والحقايق الايمانية موعظة لهؤلاء . لو عقلوا وامثلة لو انصفوا . كان الدين يخبرنا بمعراج خاتم الانبياء . (صلى الله عليه وسلم) . وان المسيح عليه السلام صعد بجسده الشريف الى السماء . وكان برهان امتناع الخرق للفلكيات يعده من الممتنعات . فكم من ملحد صال على الدين بهذا الدليل . ومؤمن لم يجد الى حله من سبيل . حتى هدم الزمان اساس ذلك البرهان . وزادت قوة

(١) يسعى جماعة من اتباع هذه الارآء . لتحسين نسل الانسان بالانتخاب الصناعى وذلك بحصر التناسل في النوابغ والاقوياء . ليأتى بزعمهم في مستقبل الزمان اناس نسبة انسان اليوم اليهم نسبة الحيوان الى الانسان ويسمونهم (السبرمان) اى فوق الانسان او الانسان الاسمى .

واستحكامًا قواعد الايمان . وكان الوحى يخبرنا بان الله تعالى خلق سبع ارضين . والمسلمون يرتلون في صلواتهم سبحان الله رب السموات السبع ورب الارضين السبع . ويخبرهم المعصوم بان هذه قبة ابينا آدم صلى الله عليه وسلم . وان لله وراء هذه القبة تسعة واربعين قبةً . فيها خلق لا يعلمون ان الله خلق آدم وكان البرهان العقلى يهدده بان وجود ارض اخرى يستلزم من المحال احد ثلاثة اشياء . اما الخرق والالتيام في الافلاك . او لزوم الخلاء . او عدم كروية السماء . وانت تعلم قيمة هذه الشبهة وامثالها اليوم في سوق العلم .

(ولعمرى) ان العلم لا يتقدم الى الارتقاء خطوةً الا وتكشف للدين حقايق خفية . وتزداد ادلتها قوةً . واذا تصفحت كتب هؤلاء واطلعت على مقالاتهم التي ينشرونها في المجلات . رأيت في كثير منها ما ذكره هذا الناصح بزعمه اللاناصح غشه برغمه وكما البسه هذا لباس النصح وقام مقام ناصح غير امين يتخذه آخر سلاحًا يهدد به الدين وبعضهم يوجب على اهل الدين تأويل الحقائق الثابتة فيه ومنهم من يقسمها بين العلم والدين كما تقسم الممالك بين السلاطين

وليس في نقل تلك السفاسف والاسهاب في ردها سوى
سأم السامع وضجر المطالع . ولكن نذكر هنا كلاماً كلياً
فيه الكفاية انشاء الله تعالى لمن وقع اليه شيء منها او من
امثالها ونقول :

(اما المسائل) اليقينية من العلم الثابتة بالبراهين القطعية
فليس فيها شيء يخالف المعلوم من صحيح الاديان بل هذا
القسم منه من اقوى جنود الدين واحسن اعوانه وهو حليفه
الذى لا يفارقه وخله الذى لا يزايله فهل شيدت قواعد
التوحيد الا به وعرف صدق النبيين الا منه فمن شاء
من هؤلاء ان يفرق بين الدين . وهذا القسم من العلم .
فقد منى نفسه محالاً . وذهب سعيه باطلاً .

(واما القسم) الذى دليله الحدس والتخمين . واقصى
مدارجه اول درجة الظن فضلاً عن اليقين . فاسعده ما وافق
شيئاً من ظواهر الدين . واشقاه ما يلي بتكذيب الصديقين .
وهذه الاراء من القسم الثاني . ولهذا يقال لها باصطلاحهم
نظرية (دارون) ولعمرى انها ان لم تكن من اضعف النظريات
فما هي من اقواها فهل مبانيها الا حدسيات (جيولوجيه) .
وعمدة ادلتها الاعضاء الاثيرية او الصور المزورة الجنينية .

وسوف تقف انشاء الله تعالى على ضعف تلك المباني . والادلة
في النظر العلمى من هذه الرسالة .

وان اراء تلك مبانيها . وهذه ادلتها . ولا يطول فيها
عنق الزرافة . الا بتكلف ازمان شديدة . وتخرصات بعيدة
لجدير باهلها . ان لا يحاربوا بها الاديان . بل يجنحوا للسلم
ويقنعوا بالكفاف . وكان (دارون) معترفاً بان آرائه
تخمينيه . بل عالماً بانه سوف يتضح فساد بعضها . فقال في
كتاب (اصل الانسان) ان كثيراً من الاراء التى بسطتها
تخمينية للغاية . ولا اشك في انه سيتضح فساد بعضها
بالبرهان القاطع . ولكننى قد اوضحت الاسباب التى
ساقتنى الى التمسك برأي دون رأي . ولقد صدق ظنه .
واصاب حدسه فقد بلغنا ان فيلسوفاً المانياً يقال له (فيرخو)
قد ردها واوضح فساد كثير منها . حتى ان جماعة كثيرة
من اتباع (دارون) قد رجعوا عن ارائه لذلك رغماً لمن قال
منهم (ان هذا المذهب اخذ بالامتداد يوماً فيوماً . وربما
لا يمر ربع جيل حتى يخلو له الجو من كل معارض)

ثم ان مما يناسب التنبيه عليه في المقام هو ان من اعظم
حيل هؤلاء الملاحدة ارائتهم لضعفاء العقول ان الدين

ينافي البحث عن علل الاشياء . وانه واقف في طريق العلم .
وان المؤمنين لايرون التعليل الا بالارادة الربانية .
وكتبهم مشحونة ببيان هذه التهمة البينة . والفرية الواضحة .
ولا يخفى على مثلك ان المؤمنين يمتازون عن الملحدين .
بانهم يثبتون للكون صانعاً حكيماً خاق المادة . وجعل
لها نواميس يجري عليها الاشياء بحسب ما يريد ويشاء .
وتلك النواميس خاضعة لقدرته موجودة بمشئته . ولا
ينكرون قط علل الطبيعة . ولا يطفرون مرحلة الاسباب .
ولا يوصدون على العقول ابوابها ومن الكلام المشهور
عندهم والجارى مجرى المثل حتى على السن عوامهم . ابى الله
ان يجرى الامور الا باسبابها ويصفونه تعالت قدرته بمسبب
الاسباب . وهذا عندهم اتقن للحكمة وادل على العلم والقدرة .
واذا لم تضر بمعتقدهم تنقلات النطفة تحت نواميسها الثابتة
الى ان تصير طفلاً ثم شاباً وكهلاً فاذا عليهم من تنقلات المادة
تحت نواميسها المجعولة لها الى ان تصير شمساً وارضاً ان تمت
الادلة العلمية لها وسلمت من الانتقاد عليها .
(فليطالع) هؤلاء سفر التكوين من هذا الكون حرفاً
حرفاً . وليستقروا على نشو المخلوقات صنفاً صنفاً . ومعهم

المؤمنون يعلمونهم كما يعلم الاطفال حروف اباجاد .
وليطيروا بجناح الخيال في هذا الفضاء الواسع حتى يتجاوزوا
السبع الشداد وليسيروا في سنن معرفة اوائل الكائنات .
وليعلموا انفسهم بما يفرضونه من التعليلات . وفي مقدمتهم اهل
الايمان يرشدونهم الى طرق الصواب . ويعرفونهم كيف ترتبت
هذه المسببات على تلك الاسباب حتى يقطعوا جميع الادوار
الجيولوجية ويصلوا الى انفصال الارض من الشمس . وهي
كتلة نارية . كاخواتها من السيارات . ثم ليبحثوا عن الشمس
وسائر النجوم . والمواد التي تركبت منها اجساماً . والعلل
الموجبة لحركاتها الى ان ينتهى البحث الى اصل الجميع .
وهي بزعمهم . دقايق المادة اوالاثير . فيسئل حينئذ الموحد
صاحبه الملحد ويقول هذه الدقائق . باي سبب وجدت فلا
يجد سبباً . فيقول الموحد لابل كونت ويسئله ثانياً لماذا
تركبت . فيقول لانها تحركت . فيعيد المؤمن السؤال .
لماذا تحركت . فلا يحير جواباً ولا يملك خطاباً . وحينئذ يبين
الموحد له السبب في ذلك . لوكان له قلب يعقل . ويملى عليه
عظمة الارادة الربانية . والمسائل الحقة من علم ماوراء الطبيعة
ان كانت له اذن تسمع . كل ذلك بعد الفراغ عن جميع ما

في عالم الطبيعة .

قال احدهم في كتابه بعد ما ذكر انقسام الفلاسفة الى مذهبين ان اهل مذهب الفريق الاول (يعنى المؤمنين) يوقف وثبات العقل عند حد مشارق الانوار . واما مذهب الفريق الثانى (يعنى الماديين) بعكسه يفتح مجالاً واسعاً لمباحث العلم والعلماء) وبعد ما احطت علماً بما قلناه لك ان تقول له يابارد . المؤمنون يقفون عند مشارق الانوار . ولكن بعد مايقف الملحد عند ظلمات المادة كما يقف في الطين الغزال ومجال العلم عند المؤمنين اوسع . ومقامهم في معرفة الاسباب ارفع . اذ عندما تقف علوم الطبيعيين وتنتهى تخرصات الماديين . يكون اول مجال الدين . ولهذا الكلام تتمة تسمعها في القسم الثاني انشاء الله تعالى

(فصل) واما مايخالف الدين . من هذه الاراء . فاعظمها في مبدء الانسان . اذ المعلوم بالضرورة من هذا الدين . بل ومن امهات الاديان الثلاثة . ان اصل جميع البشر من انسان ابتدع الله تعالى خلقه من التراب . ومن امرأة ابتدع . خلقها ايضاً ولم يكونا قبل ذلك . حيواناً ولا نباتاً فنوع الانسان مستقل في الخلق عن ساير الانواع وكونه ضرورياً

واضح لديهم ولدي غيرهم ممن عرف مذهبهم ولكن رأيت في احدى المجلات مقالة يقول صاحبها في اخرها (ان مذهب النشو لاينافي الدين في حقيقته ولا يناقض هبوط الوحي على الانسان بعد ان صار انساناً ومن يستوعب الكلام المجازى الوارد عن جبل ادم عليه السلام من التراب والنفخ في انفه يري له مندوحة كبري لتطبيق الوحى على الحقايق العلمية لان الله تعالى ليس له يد ليجبل بها ولا فم ينفخ به بقى ان هذا الكلام مجازى والمجاز خلاف الحقيقة والحقيقة بنت البحث والبحث يوصل الى هذه النتيجة) ومادرى ان قيام القرينة على المجاز في كلمة وتعذر حملها على الحقيقية لايوجب عدم حمل بقية الكلام عليها وان الاجمال في كلمة لايوجب الاجمال في جميع الكلام الذى وقعت فيه . ولو اخبر رجل هذا المتعاطى غير فنه بانه رأى اسداً متنكباً قوساً او معتقلاً رمحاً . ثم نقل مصاحبته معه وخروجهما الى الصيد وما لقيا في طريقهما وما صادا والى اين بلغا . وهكذا الى ان يملى عليه ما يدخل في مأته ورقة . اتراه يحمل الكلام كله على المجاز لقيام القرينة عليه في الكلمة الاولى او كان في اثنائه امرت خادمي ان يفعل كذا

وقدعلم ان لا خادم ولم يعرف مراده من لفظ الخادم أيحكم
على الكلام كله بالاجمال واهون منه لا بل مثله كلام لاحد
المصنفين المعروفين حاصله ان ادلة القائلين بانقلاب الانسان
عن الحيوان ليست بقطعية فيلزم التمسك بما عليه المسلمون
الان وان ثبت بعد ذلك فلا يصعب علينا تأويل الظواهر
ولا ادرى كيف يحتمل ثبوت خلاف ضرورى الدين عند
من يتدين به وكيف يقدم على تأويل دليله وليس تأويل
النصوص الدالة على اصل الانسان باسهل من تأويل مادل
على غيره من ضروريات الاديان واذا كان المؤمن مرعوبًا
من آراء هذا العصر بهذه الدرجة وفرقًا من حدسياته
ومكتشفاته يجف قلبه منها ويلتاث رأيه عندها ولا يجد
محيداً عنها الا ان يوطن نفسه على تأويل حقائق دينه فماذا
تبقى يد الشبهات من يقينه وكيف تثبت على زعازع
الاهواء اصول ايمانه .

(المقالة الثانية)

اعلم ان هؤلاء ليسوا اول من جعلوا اصل الانسان من
الحيوان وقضوا بهذه الضربة القاضية على شرف الانسان

فقد سبقتهم اليه القبائل المتوحشة فاختارت كل طائفة
حيوانًا انتسبت اليه كالغزال والضفدع وغيرهما وهذا ما يسمى
(بالطوتمه) ولكن قضى الحظ بان تسمى تلك بطوتمه القبائل
المتوحشة . وهذه بفلسفة الملل المتمدنة . واهل الطوتمه
عرفوا حق القرابة فاحترموا طوتمتهم وحرموا اكلها ونقشوا
على صدورهم صورها وبلغوها مرتبة المعبودات واهل
هذه الفلسفة قطعوا اواصر الارحام فطفقوا يأكلون الاعمام
ويركبون العمات والمتوحشون قصروا طوتمتهم على
انفسهم وتركوا غيرهم وما اختار والمتمدنون صبغوا جميع
البشر بهذا العار . ولئن كان الشرف الذى اثبتوه للانسان
لخصوص القرد من صنوف الحيوان فاهل تبت قد
سبقوهم الى ذلك وزادوا عليه شرف الانتساب الى
الشيطان . ففاقوا غيرهم من الانام بان اضافوا شرف
الاخوال الى شرف الاعمام . فقد زعموا انهم من سلالة قرد
تزوج شيطانة يسمونها (سرنمو) فولدت منه ستة اولاد
وحالما فطموا سكنوا الغابات . فعاد القرد اليهم بعد بضع
سنين . وقد صار عددهم خمسمائة اصناف من الحنطة وصعد
على جبل ورماها منه الى هؤلاء القردة فكلما اكلوا

قصرت اذنابهم وتساقطت شعورهم ثم نطقوا وصاروا بشراً .
ولكن لطوتمة الملل المتمدنة فضيلة بينة . وهى جمعها بين
صنوف من طوتمات الملل المتوحشة واثبات قرابة الانسان
لطوتمات متباينة .

ولندع الكلام عن هذا جانباً ولننظر في ادلة هؤلاء على
ماذهبوا اليه في اصل الانسان نظرة من يعجبه تمحيص
الحقايق ولايحب المجادلة بالباطل ولو كان الخصم ممن يبنى
كلامه على قواعد الدليل والبرهان . ويلتزم بالواضحات المقررة
في علم الميزان . ويعرف شيئاً من آداب المناظرة . وواضحات
المسائل الثابتة في العلوم العالية . فيعلم ان الاحتمال لايكفي
فى الاستدلال وان على المستدل سد جميع ابواب الاحتمال
وان الوقوع لايثبت بمجرد الامكان . ويعلم ان الملازمة اذا
كانت غير بينة لابد لها من البيان . وان عدم الوجود
لايدل عدم الوجدان . لكفينا نزاعه وبالاقل سقطت عنا
كلفة اطالة الكلام معه اذ الوجوه الاتية لايخرج الخطأ فيها
عن احدى هذه الامور المقررة وامثالها وكان في هذا الاجمال
غنى لك في معرفة الجواب عما تظفر عليه من ادلتهم .
ولكن ماذا نصنع والقوم . وفيهم من لا يقتصر على جهلها بل

يملأ كتابه من التهكم والاستهزاء بها . ويقول غير مكترث
بقدر العلم . ولاوجل من غيرة اهله . ان سماع مطرقة الحداد
الذ من كل خطبهم . ومراقبة دواليب الاطفال . على مجاري
المياه . اهدي من كل كتبهم . ولا يصلح شأن الامم . الا
متى تكاثفوا ومزقوا كل هذه المأثورات التى لاتزال كل
امة . تعتبرها كنزها الثمين . وهى بالحقيقة . تاريخ جهلها
المشين . ونظائر هذا . وامض منه كثير من كلامه . ولولا
الشرط الذى لزمناه في هذا الكتاب لابصرناه . وسمه في
القداح . واسمعناه الجواب ولكن : ان بعضاً من السكوت
كلام .

ومن عجيب امره انه يحط كثيراً من رفيع قدر الاقدمين
ويفرح بذهاب علوم اليونانيين . مع ان هؤلاء الافرنج
الذين لاحظ له من الفضل . الا نغبة من فضلة اناتهم . ولا
نصيب له من العلم الا ترجمة كلامهم . وتقليدهم في اهوائهم
من اشد الناس اسفاً على تلك الكنوز الثمينة ولقد نقل
احد الاثبات من اهل القرن الماضى عن رجل صاحبه من
رجال الانكليز يقال له (مستر فرنكل) انه كان يتأسف
كثيراً على تلك الكتب ويقول ان المتأخرين منا وان بلغوا

مابلغوا من العلوم والصنايع لكنهم لم يصلوا الى عشر ما
وصلت اليه اليونانيون فلو بقيت تلك الكتب الى هذا
الزمان وانضمت الى علوم اهله علوم اليونان لكانت الدنيا
الان جنة لا يوجد فيها شبر الا وهو معمور بصنوف الفضايل
والعلوم

ولنعرض عنه وعن امثاله اعراض الكرام ولنرجع الى
ما كنا بصدده. ونقول الاولى نقل شبهاتهم واحدةً بعد واحدة
والجواب عن كل منها على حدة ولنبدء بنقل كلام (دارون)
في كتاب (اصل الانسان) الذى اشاعه سنة (١٨٧١) وهى
تكملة لرسالته في اصول الاجناس وهذا الكتاب لم يصل الينا
بعد وانا وجدنا مايتعلق بالمقام مترجماً ونحن ننقل ماوجدناه
بالفاظه لئلا تكون علينا عهدة الخطأ في النقل ان كان فيه قال .
اما النتيجة التى توصلت اليها هنا والتى يعتقد بها الان
جماعة من العلماء ذوى الاهلية لبث الاحكام السديدة
فهى :

ان الانسان قد نشأ عن حيوان احط منه بنية والاركان
التى شيدت عليها هذه النتيجة لن تتزعزع ابداً لان
المشابهة الشديدة بين الانسان والحيوانات الدنيا في نشو

الاجنة . وفيما لا يحصى من احوال البنية والتركيب من
الاهمية وقليلها . والاعضآء الاثرية الباقية فيه . وتعرضه
من وقت الى آخر . للشرود عن المألوف . والعودة الى الاصل
جميع هذه الحقايق لا مرآء فيها وقد عرفت هذه الحقايق في
زمن بعيد . ولكنها لم تنبئنا بشئ فيما يختص بأصل الانسان
الآ منذ عهد قريب .

كأنه يريد ان مقدمات الادلة على تحول الانسان كانت
معروفةً سابقاً . ولكن الاستدلال بها عليه لم يكن الآ
منذ زمن قريب . وهذا قريب مما يقول متابعوه .

ان السابقين نظروا الى كل فرد من الاشياء و(دارون)
نظر الى المجموع . واستنتج منه ارآئه .

وستعرف ما في هذه الحقايق التى يزعم انه لا مرآء فيها
عند ما يكررها في كلامه (قال) والنظر الآن في الادلة
على مذهب التحول هذا وهى ... اولاً قابلية التغيير ـ
بشرط ارتقآء الانسان ان يكون قابلًا للتغيير جسداً
وعقلًا . وان يكون خاضعًا لنواميس الارث التى بمقتضاها .
تنتقل التغييرات التى تحدث فيه الى نسله . وان تكون
هذه التغييرات معلولات للعلل العامة التى يشتمل بأسرها

جميع الكائنات الحية، بجميع هذه الشروط، مستكملة فيه.
وتحريره على ما فهمنا منه الاستدلال على وقوع التحول .
بدعوى قابلية الانسان له . واجتماع شروطه فيه . وبيانه .
بان الانسان احد الكائنات الحية . التي هي قابلة للتغيير .
وخاضعة للنواميس العامة . ومتى ثبتت القابلية وعلم وجود
النواميس العامة التي حولت غيره . فلابد من تحويلها
الانسان ايضاً .

وهذا الدليل مبني على ثبوت النواميس التي بنى مذهبه
عليها وستعرف مواقع النظر منها في المبحث العلمي انشاء الله
تعالى ومع تسليم الكل . فلايتم على خصومه من اهل الدين .
اذ لابد في اثباته على مذهبه من وجود اصل حيوي للانسان .
قد مرت عليه ملايين من السنين . حتى تعمل النواميس
البطيئة عملها . وكلا الشرطين . غير مسلمين عند خصومه .
فانك تعلم ان المليين ينكرون ذلك الاصل في الانسان .
ويذهبون الى اختراع خلقته من مدة قليلة بالنسبة الى الزمان
الذي يفرضه (دارون) لتصحيح آرائه ومقدار تأثير
النواميس التي يبني عليها مذهبه في هذا القليل من الزمان .

لا يتجاوز هذه التغييرات التي نشاهدها بين اصناف البشر .
على ان اقصى ما يثبت بقابلية التغيير امكان التحول وحصول
الصورة الانسانية به لا نفي وقوعه بسبب آخر كالابداع
الذي يعتقده المليون . وبالجملة الحكم بالوقوع بمجرد القابلية
من طرآئف الحكمة . ومختصات هذه الفلسفة . وما مثل
من يعتمد على هذا الدليل . الا كمن رأى حديدة احميت
بالنار فجزم بانها احميت بالشمس . مستدلاً بقابليتها للاحتماء
بالشمس اذا طال زمان مكثها فيها .. ولعدم الملازمة بين
القول بنواميس التحول وبين وقوعها في الانسان كان
(والس) شريكه في هذه الآراء يقول بالتحول في سائر
الحيوان . وينكره في الانسان .

(نعم) في بعض المجلات انه قد رجع عن ذلك اخيراً .
وجعل ناموس النشو شاملاً له . وفيه نقل عبارة له . وان
كان مستنداً لناقل تلك العبارة فقد غلط في فهمها (قال ثانياً)
مشابهة البينة . ان جسد الانسان مركب بوجه عام على مثال
اجساد الحيوانات الاخرى ذوات الاثدي . فعظام هيكله
لها مقابل في هيكل القرد والخفاش . وعجل البحر مثلاً .
ويتمشى هذا التمثيل على عضلاته واعصابه واوعيته الدموية .

وخلاياه الداخلية . ودماغه وهو يشترك . مع الحيوانات في
قابليته للعدوى ببعض الامراض مثل (الكلب)(والجدرى)
(والزهرى) (والكوليرا) وغيرها مما يدل دلالةً قاطعة
على شدة المشابهة بينه وبينها في الدم والانسجة . من
حيث دقة التركيب . والبنية . وزد على ذلك ان القرد .
معرض للزكام . والصرع والتهاب الامعاء . وكاتركتا
العين والحمي وان العقاقير الطبية تفعل فيه فعلها في الانسان
ومن النظر الى شدة ميل بعض انواع القردة الى شرب
الشاى والقهوة والمشروبات الروحية التى تسكر والى الالام
العصبية التى تصاب بها على اثر السكر يتضح لنا شدة
مشابهتها للانسان حتى في الذوق والحس العام وتسطو على
الانسان حلميات خارجية وداخلية من نفس جنس الحلميات
التى تنتاب الحيوانات الاخرى من ذوات الاثدى وجميع
ذلك يدل على شدة المشابهة بين الانسان والحيوانات العليا
ولاسيما القرود في عموم البنية ودقة الانسجة والتركيب
الكيمى والالفة .

اطال (دارون) في بيان وجوه المشابهة بين الانسان
وغيره وكان لوضوح ذلك في غني عنها .

(ولقد ذكر) ائمة المسلمين وعلمائهم ماهو اغرب واقرب

الى ما يروم ففى كتاب التوحيد الذي املاه الامام
(جعفر بن محمد الصادق عليه السلام) على المفضل بن عمر
الجعفي .

تأمل خلق القرد وشبهه بالانسان في كثير من اعضائه
اعنى الرأس والوجه والمنكبين . وكذلك احشائه ايضاً
شبيهة باحشاء الانسان وخص مع ذلك بالذهن والفطنة
التى بها يفهم عن سايسه مايومي اليه . ويحكي كثيرا مما
يرى الانسان يفعله حتى انه يقرب من خلق الانسان وشمائله
في التدبير عن خلقته على ما هي عليه ان يكون عبرةً
للانسان في نفسه . فيعلم انه من طينة البهايم وسنخها اذ كان
يقرب من خلقها هذا القرب . وانه لولا فضيلة فضل بها في
الذهن والعقل والنطق . كان كبعض البهايم على ان في جسم
القرد فضولاً اخرى يفرق بينه وبين الانسان كالخطم
والذنب المسدل والشعر المجلل للجسم كله وهذا لم يكن
مانعاً للقرد ان يلحق بالانسان لو اعطى مثل ذهن الانسان
وعقله ونطقه .

(وقال الدّميري) وهذا الحيوان يعني (القرد) شبيه
بالانسان في غالب حالاته . فانه يضحك ويطرب ويغني

ويحكي ويتناول الشيء بيده وله اصابع مفصلة الى انامل
واظافر ويقبل التلقين والتعليم ويأنس بالناس ويمشي على
رجليه حيناً يسيراً ولشعر عينه الاسفل اهداب وليس ذلك
لشيء من الحيوان سواه فهو كالانسان ويأخذ نفسه بالزواج
والغيرة على الاناث وهما خصلتان من مفاخر الانسان
(فالقرد ارقى كثيراً من كثير من اتباع هذه الفلسفة اعداء
الزواج الفردي ومروجي طريقة الزواج الحيواني) فاذا زاد
به الشبق استمنى بفيه وتحمل الانثى اولادها كما تحمل المرأة
(الى ان قال) وفيه من قبول التأديب والتعليم ما لا يخفى
ومهما بالغ (دارون) في المشابهة الجسمية والمعنوية بينهما فلا
يبلغ مرتبة اصحاب رسائل اخوان الصفا حيث قالوا :
(اما القرد فلقرب شكل جسمه من جسد الانسان صارت
نفسه تحاكي النفس الانسانية) وبالجملة كان الاولى ان
يذكر بدلاً عن بيان وجوه المشابهة وجه الاستدلال بها
فان مجرد المشابهة بين شيئين لا يلزم تحولهما عن ثالث او
تحول احدهما عن الآخر فكم في الارض اصناف من
الحيوان والنبات تتقارب بعضها مع بعض في الصفات
وتباينه بالذات (بسيط)

قد يبعد الشيء عن شيء يشابهه ان السماء شبيه الماء في الزرق

على ان الانسان كما يشابه القرود الشبيهة به في اشياء يشابه
حيوانات اخر من جهات اخرى بل لعل في الحيوانات الدنيا
من شبه الانسان اقساماً لا توجد في العليا فلا يصح الاعتماد
على مجرد المشابهة(١) ثم من الواضح ان عمدة ارتقاء الانسان
والذي استوجب به ان يعد نتيجة الكون والغرض من تعب
الطبيعة في تحولاتها الكثيرة انما هي بقواها العقلية وبقدرته
على المسائل العلمية فالاولى بالقياس الاعتماد في المشابهة على
على الصفات النفسية دون الجسمية والقرد وان كان له منها
النصيب الوافر ولكن في الحيوانات الاخر من النباهة ما
قد يفوق عليه والقضايا المنقولة في ما قلناه كثيرة ويكفي
في ذلك ما تنقله الجرايد الان من (حنا النبيه) فرس (هرقون
اوسنين) ومعرفته ما يعجز عنه بعض البشر فضلاً عن القرود
كمعرفة الجمع والتفريق وغيرها .
وهذا الاستاذ الشهير (كوفيه) يقول ان ادراك القرد

(١) هذا الكتاب يحتاج الى البسط والتوسع في الاستقراء والاكثار
من ذكر الامثلة وقد اعوزتنا المواد اللازمة لذلك وعلى من ظفر بما لم يبلغه
وسعنا ان يشرح هذا المجمل ويغتنم الشكر منا والاجر من الله سبحانه

ليس ارقى من ادراك الكلب الا قليلا

سلمنا ان من لازم المشابهه التحول . فكيف يتعين تحوّل الانسان عن حيوان نشأ عنه القرد فلعلّ الانسان تحوّل قرداً . وهذا مانصّ عليه الذّكر الحكيم . ويعتقد به المسلمون وهذا

(اعنى اصل تحوّل الانسان قردا . لا المسخ الذي نطق به القرأن يمكن حتى على مبادى هذه الفلسفة . اذ الانتخاب الطبيعي لايؤدى الى الارتقاء دائماً . بل قد يؤول الى التقهقر والانحطاط كما في الدّب الاسمر الحالى وغيره . مما هو مبسوط في مذهب (دارون)

فلعل طائفة من الانسان وقعت في وسط اقتضت احوال المعيشة فيه . ان تسكن كهوف الجبال . وتتساق الاشجار لتقتطف منها الثمار . وتحارب اعدائها من الحيوانات . باسنانها ونحو ذلك فتركت المشى . مستقيما . والتجأت الى استعمال الارجل مقام الايدى وتركت التكلم لقلة حاجياتها . فنقصت الزاوية الوجهية وطال البوز منها . ونحو ذلك . وانتقلت العادات بالوراثة الى اعقابها . وهلك الضعيف منها وبقى بالانتخاب القوي منها على تحمل عوارض الوسط . وهو ذو

الشعر الذى يقيه من البرد والذنب الذى يطرد عنه الهوام فصاروا بعد احقاب طويلة قروداً . فالقرد اذاً انسان منحط لا ان الانسان حيوان مرتقى ولعل القاري يوسعنى الفند والملام . ويقول ان صفحات العلم اجل من ان ترسم فيها هذه الاوهام . واقول لك العتبي ولكننى لا الفى من نفسى هذه الوساوس بل اجرى على ماسنه هؤلاء الفلاسفة . انظر الى ما سيأتي نقله عن (المسيو دوتى) لترى ان قصارى الفرق انه صنع من القرد انساناً وانا صنعت من الانسان قرداً :

(كلانا عالم بالترهات)

ثم ان هنا اصلين يعترف بهما كل من المنكر للتحول والقائل به وهما التشابه والتباين . فكما يجوز لهؤلاء . ان يستدلوا بالتشابه بجعله دليلا على اتحاد الاصل . والتباين عارضاً . بالتدريج فلخصمهم ان يعكس الدليل . ويجعل التباين . دليلاً على اختلاف الاصل والتشابه عارضاً بالتدريج وهذا وان كان مما يعز عليهم المناص عنه لكنه راجع الى المناقشة في اصولهم فهو بالبحث العلمي الصق وسوف تسمع تفصيله هناك .

قال ثالثاً مشابهة الاجنه ينشأ الانسان من بويضة قطرها

نحو جزء من (١٢٥) من القيراط وهي لاتختلف في شيء عن
بويضات الحيوانات الاخري . وجنين الانسان في اوائل
تكوينه يكاد لايفرق عن اجنة ساير الحيوانات الفقريه ثم
يبتدى الاختلاف فيظهر الاطراف . واذذاك تنشأ الرجل
العظاية . وقوائم ذوات الاثدى . واجنحة الطير . وايدي
الانسان وارجله . من صورة اصلية واحدة في جميعها . ولا
يتضح الفرق بين جنين القرد . وجنين الانسان . الا في مدة
اواخر النمو . وحينئذ يستوي جنيني القرد . والانسان في
اختلافها عن جنين الكلب .

وينتج من ذلك الانسان لايختلف في كيفية نشوه
عن الكلب والطير والضفدع والسمك . ويماثل الحيونات
التي تحت مباشرة في سلم الكون في كيفية تكوينه
وابتداء نموه وفي الاطوار الاخيره من نمو جنينه يكون
الاختلاف بينه وبين القرد اقل جدا مما بين القرد والبشر .

لانحب تكذيب مثل (دارون) ولكن نقول ان هيكل
كما عرفناك قبل قد زور هذه الصور الجنينية وبنى عليها
مذهبه ثم ظهر كذبه واقتضح به واعترف بتلك الفضيحة
وهاك ننقل القصة عن الرسالة الراعوية (في الدين والعلمانية) :

تاليف (فريديانو) جيانيني النائب الرسولي على حلب وقد
لخصناها لطولها قال نشأ (ارنست هيكل) في المانيا وقضى
نحواً من نصف قرن استاذ العلوم الطبيعيه في كلية (ايينا)
وبات بواسطة نشر مؤلفاته بين العامه كالاب الروحي للمحدى
اوربا الى ان قال بعد نقل ذهابه الى ان الانسان تسلسل
بالتدريج شيئاً فشيئاً من الحيوانات السفلى على ان اعظم
دليل جاء به لاثبات مذهبه انما هو مجموعة من الصور
المكبرة المثله لهيأت رقي نطفة الحيوان المتواليه في
الاحشاء الوالديه ففي تلك الصور تظهر النطفة الانسانية
مبدئة بابسط الهيئة الحيوانيه ومندرجة الى هيأت اكمل
فاكمل حتى تبلغ الهيئة البشريه ولما كانت تقلبات الجنين
على زعم استاد (ايينا) لايتم الا على طريقة التقلبات
التي تمت سابقاً على مر الاعصار في الانواع الحيوانية المختلفة
اصبح من المقرر لديه ان الانسان تسلسل بتقلبات متتالية
عن مادة اولية لا هيئة لها (كذا) نمت شيئاً فشيئاً واخذت
تتحول مرتقية من الحيوانات السالفة الى الانواع العاليـة
كالقرد حتى انتهت الى النوع الانساني بيد ان بعض العلماء
في المانيا وغيرها من مثل الدكتور (براس) بعد فحصهم

ثلك الصور التي استند اليها (هيكل) وجدوا انها لم تكن
كلها صادقة بل بعضها مزوراً وقد زوره (هيكل) تتميماً
للحلقات الناقصة في السلسلة التي اتخذها اساساً لمبدئه وما
انتشر خبر هذا التزوير العلمي بين الجمهور حتى ارغى وازبد
استاد (ايينا) وتهدد متهميه باقامة الدعوى عليهم فسر
مريدوه بذلك ولكن نار غضب الرجل ما لبثت ان انطفت
فانه تحاشى ازعاج المحاكم لما رأى نفسه مضطراً الى الاقرار
بالحقيقة فابدى الاعذار العديدة واعترف بان بعض تلك
الصور حرف تحريفاً كان يتطلبه المبدء وهكذا اضمحلت
الى الابد شهرة (هيكل) لدى العلماء وقد قال العالم (بولس)
عن كتاب (اسرار الكون) اشهر مصنفات استاد (ايينا)
قرئت هذا الكتاب بخجل لا يوصف ان افتكرت فيما
وصلت اليه العلوم الفلسفية بين شعبنا من الانحطاط وانه
لعار على الالمانيين ان يطبع ويشري ويقرء كتاباً كهذا
عندهم .

(قلت) وهذا التزوير مما شاع امره وذاع . وتداولت نقله
المجلات والجرائد . وقد اطلعت على عدة مقالات لهؤلاء
في الاعتذار عنه ومنها مقالة مسهبة (لهيكل) نفسه فاذا

الرجل مع شدة غيظه ووفور حدته يعترف به كما قال
صاحب الرسالة . ولكنه يحمله من باب الاضطرار الى التزوير
(فاعجب) ويزعم انه لا ينفرد بهذه الجناية على العلم
والخيانة فيه بل يشاركه فيه كثير من الفلاسفة (وهذا
اعجب) ومع هذا الاعتراف يحمل ذنبه رجال الدين
ويقول انه حيلة (اكليريكيه) .

وما ادري ما ذنب (الاكليروس) بعدما كان هو الجاني
على نفسه باعترافه فهلا ترك الاعتراف ليبقى للاعتذار عنه
مجال واسع عند هراطقته وتبذل جمعية (المونيسم) (١)
كل مرتخص وغال في الانتصار له .

وهاك طرفاً من مقالته المؤرخة ٢٤ (ديسمبر) سنه ١٩٠٨
قال (تزوير صور الاجنة) انى اعترف حسماً للجدال في
هذه المسئلة ان عدداً قليلاً من صور الاجنة نحو ستة في
المائة او ثمانية موضوع او مزور اذا عد الدكتور (براس)
ذلك تزويراً . وذلك فيما كانت المواد التي يراد فحصها او
رسمها غير كاملة حتى يضطر فاحصها او راسمها وهو يضع
حلقاتها بعضاً بازاء بعض في سلسلة ارتقائها ان يملأ بينها

(١) يراد به وحدة الوجود اي قصره على الطبيعة مقابل الدوالسم اي تثنية الوجود الطبيعة وما فوقها .

بحلقات فرضية – الى ان قال فبعد هذا الاعتراف يجب ان
احسب نفسي مقضياً عليّ وهالكاً ولكنه يعزيني ان ارى
بجانبي في كرسي الاتهام مئات من شركائي في الجريمة
وبينهم عدد كبير من الفلاسفة المعول عليهم في التجارب
العلمية وغيرهم من علماء الاحياء (البيولوجيا) فان كثيراً
من الصور التي توضح علم ابنية الاحياء وعلم التشريح
وعلم الانسجه وعلم الاجنة المنتشرة المعول عليها مزور
مثل تزويري تماماً لا يختلف عنه في شيء الى آخره .

لا ادري كيف لا يعد (براس) ذلك تزويراً وقد علم
كما علم غيره ان لا تزوير اشنع ولا اوضح مما ارتكبه
الرجل حيث عمد الى رسم صور لا حقيقة لها وادعى انها
حقيقية ليدعم بها منقض مذهبه في التسلسل فتداولتها
الايدى واعتمد عليها العلماء كما في مقالة نشرتها جريدة
الاخبار تحت عنوان (فضيحة فيلسوف) فاوقعهم بذلك
في مهالك الخطأ واوردهم موارد الضلال ولولا رجال الدين
وسعى احدي جمعياته اعني جمعية (كيلر)(١) لبقيت هذه

(١) جمعية دينية اقيمت مقابلة لجمعية (مونيسم) الالحادية التي اقامها (هيكل) في المانيا .

الوصمة على العلم وسلمت بها العقول كأنها من الحقائق
الراهنة .

فجزى الله الدين عن العلم افضل الجزاء . فانه كما قال
احد المنصفين حفظ في الاديره . واذيع على ايدي الرهبان .
وهم مع ذلك حماة ثنوده من التزوير . ولا يجديه عذراً
ما ادعاه من مشاركته لجمع من الفلاسفة فيه اذ هو لا يدفع
عار التزوير عنه بل يشركهم فيه معه . فحكمه في شريعة
العلم ان يقام عليه حدان حد التزوير في العلم وحد الافتراء
على حملته الا ان يأتي ببينة على صدق ما قرفهم به فيدرء
عن نفسه الحد الثاني ويقام عليه وعليهم جميعاً حد التزوير
ولا ينفعه ايضاً في الاعتذار ما تشبث به من دعوى الاضطرار
لانه لو كان لا يقصد الا تتميم الحلقات فقط لميز الصور
الوهمية من الحقيقية وفرق بعلامة بين الفرضية منها والواقعية
وابان ذلك للمطلعين عليها ليتم له ما حسب نفسه مضطراً
اليه وسلم من عواقب التزوير التي اقلها فضيحة الابد
والالتزام بالتنحي مكرها (١) عن كلية (بانا) بعد ان قضى

(١) هذا ما نقله صاحب مقالة (فضيحة فيلسوف) المتقدمة وفي مقالة هيكل الاعتذار بالاستعفاء عن استادية الكلية المذكورة . وهذا اعذر يعلل نفسه به كل معزول

استاذاً فيها ثلاثين عاماً

واراني قد اطلت الكلام على امر لولا مالزمني من الذب عن الحقيقة الثابتة في الاديان ومن الدفاع عن شرف الانسان لكان الواجب عليّ في شريعة العلم الصفح عن ذكره بل الجد في كتمان امره وللرجل بعد مقامه الاول ومثله فيما ارى يعذر فيه ولا يعذل .

وماذا ينقم الناقمون على فيلسوف عمل بوظيفته وجري على موجب فلسفته (١)

دعاه ناموس حب الذات الى التزوير فزور حيث امن الضرر ولم يدر ان الدكتور (براس) واقف له بالمرصاد وجمعية (كبلر) تراقب منه الحركات

هذا وخصوم (هيكل) (كبراس) وغيره ينسبون اليه تزويرات اخرى في هذه الصور شنيعه جداً قد تركنا ذكرها ولكنه ينكرها والله سبحانه اعلم بها

---

(١) هذا اجمال مما تعرفه مفصلا انشاء الله في القسم الثاني من انه على مذهب غلاة الماديين ومنهم (هيكل) لا يعقل وجود رادع عن القبايح الاخوف الضرر فقط

ولنرجع الى الكلام عن هذا الاستدلال ونقول ان هذه الصور على تقدير ثبوتها الاوجه للاحتجاج بها الا المقايسة بين تقلبات النوع وبين تقلبات الفرد في حالة خاصة وهذا من اضعف القياس وابرد الاستحسان ولكنني رأيت في مقالة مقتطفة من كتاب (ثولف لاكونت) ان من الحقائق المقررة في علم الحيوة ان الفرد في نموه يمر على نفس الادوار التي يمر عليها نوعه فراجعت ماحضرني من كتب الميسولوجيا كاصول الدكتور (يوحنا) ورتبات التي ترجمها من كتاب الدكتورين (كركس) و (اباكر) فلم اجد ذكراً لهذه الحقيقة ولم اجدها في كتب البيولوجيا الا ادعاء مجردة عن البرهان وايضاً لو تمت الملازمة بين نمو الافراد والانواع لكان اللازم اطراده في جميع مراتب الحيوانات وتنقل كل منها بعدد الانواع التي سبقته في الوجود وترقي عنها على الترتيب الذى وجدت اولا . وليس كذلك في جميع هذه الامور الثلاثة.

(١) لان هذا الاقتفاء (اقتفاء الافراد للانواع) مختص بالحيوانات التى تتولد عن البيض دون الحيوانات التى تتوالد بالتبرعم.

(٢) وفي الحيوانات البيضية لاتوجد تاماً مرتباً بل قد
يكون ناقصاً وقد يكون مختلاً في نظامه . فتري الحيوان
ينتقل من درجة الى اخرى ويتخطى درجات كثيرة بينهما
وهذا كثير في جميع طوائف الحيوان لاسيما العليا منها
(٣) وقد يتقدم ثم يتأخر ثم يتقدم . وقد بسط الكلام
على جميع ذلك الاستاذ (مرشل) في خطبته التي تليت في
مجمع تقدم العلوم البريطاني (سنة ١٨٩٠)

ومن العجب انك تجد حيوانين من نوع واحد وفي درجة
واحدة من سلم الارتقاء ينمو جنينا احدهما على صورة والاخر
على صورة اخرى . والضفادع العادية تكون اولاً عوماً
ذات خياشيم ولكن في (اميركا) نوعاً منها لايمر في نموه
على هذا الطور .

ومن رام ان يعلل ماعرفناك بما يزعمه (هيكل) من ان
الصفات التي تقوم بها النوع بعضها وراثي وبعضها مكتسب
زاعماً ان الاولى يمر عليها الفرد في نموه والثانية زائلة
يتخطاها فقد اسس تعليله على شفا جرف هار وبناه على اصل
لايقر له قرار وسنعرفك مواقع الغلط فيها في النظر العلمي
انشاء الله .

على ان من نواميس الوارثة التي استدركها (هيكل)
على (دارون) ان الصفات المكتسبة يكون انتقالها اسهل
واثبت كلما طال تكرارها في الاجيال كما في تربية الازهار
وتحسين الثمار .

فان كانت الصفات الوراثية ثابتة عند (هيكل) كما
نقل عنه هذا المعلل فالمكتسبة عنده اثبت واسهل فهي اولى
بالمرور عليها واحق به من غيرها .

على ان هذا التعليل لايعلل به جميع المفارقات المتقدمة
فلماذا يختلف افراد النوع الواحد وهل يعقل ان تكون
صفة معينة وراثية لفرد ومكتسبة لاخر ومن علله بان
جميع طوائف الحيوان ولا سيما العليا منها تميل اجنتها
الى اختصار طريق نموها لان الفرصة لاتمكنها من ان تمر
عليها درجة فقد شارك صاحبه في غض الطرف عن جميع
الامور المتقدمة وقصره على تعليل نقصان الدرجات . ولكنه
زاد عليه بانه اتى بما لا يفهم وعلل عجباً واحداً بعجايب
وما جلى كربة عن وجه العلم الا بجلب مصايب ولا ادرى
ما الذي يدعو الاجنة الى هذه العجلة . وما الغاية التي تقصدها
من هذه المبادرة وما الذي اقدرها على مايعجز عنه الكهول

المحنكون وشيوخ العلم والفلسفة من مخالفة الحقيقة المقررة في علم الحياة ولما ذا لاتبقى لها هذه القدرة بعد الولادة فلا تستطيع اختصار نموها بالطفرة الى الكهولة من سن الفطام. ولما ذا لاتتفق الاجنة على حذف مراحل معينة اوادغامها فصار بعضها يدغم اويطفر مايسير عليه غيره متدرجاً . وان ناموساً فيه هذه الضروب من الاختلاف والشطط ولاينفذ سلطانه الا على الحيوانات البيضيه فقط . وهى ايضاً لاتكترث به في كثير من الاحوال بل تتقدم على رغمه وتتاخر وتدغم درجاته وتطفر ثم لايرفأ الا بهذه التعليلات العايلة لجدير بان يتعجب منه ويرق له لا ان يستدل به ويعتمد عليه .

ثم يبقى السؤال عن العوامل التي توجب هذه التحولات المتعاقبة ولا يعقل ان تكون تلك العوامل التي توهموها في الانواع .

اذ ليست في البيضة الواحدة احياء كاملة كثيرة يقل عنها الغذاء فتنازع في البقاء ويبقى الانسب منها ولا ولادات متعاقبة فتحدث منها التشابهات والتباينات فاذا امكن حدوث الصور المتوالية من غير العوامل التي ذكروها فما

الذى يدعوا الى تكلفها في الانواع . واذا كانت في الكون عوامل سواها تفعل فعلها فاي حاجة اليها وبماذا تعينت من بينها (قال رابعاً) الاعضاء الاثرية — لا يخلو جسم فرد من الحيوانات العليا وفي جملتها الانسان من وجود الاعضاء الاثرية فيه كالثندوتين في صدر الرجل والناب الذى تحت اللثة من المجترات فهذه الاعضاء وما شابهها تدعى اثرية لعدم نفعها الآن لذويها مما يدل على انها لم تنشأ تحت الاحوال الحالية وهى شديدة التغيير لعدم نفعها ويترتب على ذلك عدم خضوعها لفعل الانتخاب الطبيعى واختفائها في غالب الاحيان . —

ومما يستحق الاعتبار انه مع ذلك يبقى فيها قابلية الظهور ثانية في اوقات مختلفة جرياً على مقتضى ناموس العود الى الاصل والظاهر ان السبب الاول في صيرورة بعض الاعضاء اثرية هو عدم الاستعمال لها في ابان الاحتياج اليها ويكون ذلك غالباً في زمن البلوغ وقولنا عدم الاستعمال لا يقتصر على نقص عمل العضلات بل يشمل ايضاً قلة توارد الدم اليها او كونها معرضة لاقل مما يلزم لحفظ كيانها من الضغط المتعاقب عليها ونحو ذلك من الفواعل التي تقلل عملها الخاص .

وتنتقل هذه الاثريات بطريق الارث الى الاعقاب
ويكون ظهورها في نفس المدة التى ابتدأ ظهورها فيها
وفي جسم الانسان عضلات مختلفة اثرية وعضلات في حالة
الظهور الكلى لها مقابل فى العجماوات .

ثم انتقل الى عدعدة اعضاء للانسان زعم انها اثرية جزم
بها في بعض واحتملها في بعض آخر .

اطال هؤلاء الكلام في هذه الاعضاء وعظموا امرها
حتى افردوها عن سائر مباحث فنها وجعلوا لها علماً مستقلاً
سماه (هكل الدستبلوجيا) وهم فيها بين مكثر ومقل
وجازم فى بعض وفي بعض محتمل ونحن انشاء الله نقدم
كلاماً كلياً ندعوا كل احد من القرآء الى التأمل فيه
ونرضى بحكمه ان كان ممن منح حب الانصاف وبغض
اليه الاعتساف ثم نذكر الجواب عنها في محل البحث
وهو الانسان فنقول من الواضح الذى لا يرتاب فيه احد
ان علم (العيسيولوجيا) اعنى علم الحيوة ومن اهم مباحثه
معرفة وظايف الاعضاء لم يعرف البشر جميع مسائله دفعة
واحدة بل عرف بعض واضحاته اولاً ثم سرى على ناموس
الارتقاء التدريجي حتى بلغ اليوم هذه المرتبة العالية

والدرجة السامية ولاشك انه قد مرّ على نوع البشر (عدا
من خصه الله تعالى منهم بالوحى) زمان لا يعرفون فيه من
منافع الاعضاء سوى اعينهم التى كانوا يبصرون بها
وايديهم وارجلهم التى كانوا يبطشون بها ويسعون عليها
ونحوها من ظواهر منافع ظواهر الاعضاء ولنقصان علم
التشريح ايضاً لاشك انهم حينئذٍ ما كانوا يعرفون القلب
الذي هو اعظم الاعضاء في الحيوانات العليا فضلاً عن
نفعه العظيم ولا صماماته فضلاً عن منافعها وبعد اطلاعهم
عليه لاشك انهم كانوا يعدون الصمامات اعضاء اثرية (اعنى
زائده) ومن عرف ان له نفعاً لم يعرف اعظم منافعها حتى
اكتشف (هارفي) دوران الدم من عهد غير بعيد فلا
شك ان علم (الدستيلوجيا) كان من اوسع العلوم موضوعاً
لشموله اكثر اعضاء الانسان بل كلها الا عدة ظواهر
منها ومازال تقدم العلم يضيق موضوعه ويخرج منه الاعضاء
افواجاً فيسوقها الى (الفيسيولوجيا) حتى بقيت منها
هذه المدة التى ذكرها (دارون) وهو كما عرفت غير
جازم باثرية كثير منها وعدة اخرى لم يذكرها هي مثلها
او اخفى منها .

هذا مع النض عما نعرفك في موضعه من ظهور وظائف
كثير منها لدي اهل العلم ومعلومية عظم منافعها لديهم
اتري والحالة هذه ان الانسان لايظن (ان لم يقطع) بان
هذه العدة من الاعضاء كباقيها ذات منافع جمة وان لها
وظائف مهمة فعلاً وان خفى عليه الوجه فيها كما خفى على من
سبقه في اكثر منها أفليس الاولى به ان يسعى في معرفتها
ويجهد في رفع حجاب الجهل عنها ويوءدى فرضه المقدس
من اكمال نقصان العلم ما امكنه كما فعله السابقون عليه
ويقول ان لم يوفق لذلك ان وظيفتها مجهولة اولم تعلم بعد
كما يفعله المحققون من السابقين بل ومن علماء العصر ايضاً
او الاولى ان يجزم بان جميعها اعضاء باقية من ادوار الانسان
البهيمية وليست لها وظايف فعلية فيوصد باب العلم على
الافهام ويستريح من حيث تعب الكرام ومن حظ (الفيسيو
لوجيا) تاخر زمان (الدستيلوجيا) عن اكتشاف نفايس
مباحثه والالفتر هذا الاحتمال عنها الهمم وخسر تلك المباحث
وكان ماخسره غنيمة لهذا العلم الذي شرفه استاد (ايينا)
فتولى تسميته بنفسه وظاهر لدى العارف بعلم الحيوة ان
وظايف اعطاء كثيرة كانت مجهولة عند علماء الغرب ولم

تعرف الاّ في هذه الايام ومن الشايع في بلادنا ان فوائد
الكبد كانت مجهولة عندهم الى اواسط القرن الماضى وان
لم يصح النقل فلاشك ان فوائد اعضاء كثيرة في محل البحث
الى الآن تختلف انظار العلماء في فوايدها ولا يذهب احدهم
الى الحكم بتعطيلها لمنافاته للفطرة التى سلمت من الآفات
ولم تعبث به ايدي الشبهات .

على انا لو سامحنا القوم ولم ناخذهم بالقضية المسلمة بين
جميع العقلاء من ان عدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود
وسلمنا عدم النفع فعلاً لهذه الاعضاء فبأى دليل نسلم لهم
ان هذه الاعضاء كانت عاملة في الانسان قبل ارتقائه وبقيت
ضامرة لفقدانها وظايفها في حالته الحاضرة ولم لا تكون
ابتداء نشو لاعضاء ذات اهمية في تحولات الانسان الآتية
وظاهر ان الاعضاء التى يحتاج اليها الحيوان في حال ارتقائه
لا توجد دفعة بل توجد وتكمل تدريجاً حتى تصير قابلة لاداء
وظائفها في وقتها فثداء ذوات الاثدى وايدى ذوات الاربع
لم توجد دفعة واحدة على اصول هذه الفلسفة بل بدأت
بالوجود في احدى ادوارها العريقة في القدم ولا زالت تكمل

على مر الملايين من السنين حتى بلغت مبالغها وتمكنت من
اداء وظايفها وظاهر انها كانت في تلك الادوار السابقة تعد
زائدة اثرية فماذا يكون جواب هؤلاء الحاكين بالخلل في
نظام جسد الانسان والقاطعين بان هذه الاعضاء كانت عاملة
في سالف الزمان اذا قلب الخصم لهم ظهر المجن وادعى انها
ابتداء نشو الاعضاء سوف يحتاج اليها في الادوار الآتية
وجرى على مذهبهم من قياس النوع بالفرد كما سمعته من
استدلالهم بتكون الجنين وجعل الحال في ثندوة الرجال
كحال الثدى في افراد النساء فكما ان ثدى الجارية تبدو
اولا ثم تنمو تدريجا وهى ناقصة النمو في حال صغرها بل
زائدة لعدم وظيفة لها ثم تكمل فتؤدى وظيفتها عند بلوغ
الجارية واحتياجها الى الارضاع فلتكن ثندوة الرجال
كذلك فسوف تتم وتتم وظائفها عند بلوغ نوع الرجال حد
الكمال ولا يجديهم في دفع هذا ما اشار اليه (دارون) من
ان بعض هذه الاعضاء عاملة في بعض اقسام الحيوان لان
من الممكن ان يحتاج الحيوان الاعلى الى عضو يحتاج اليه
الادنى ويستغنى عنه المتوسط ومن الممكن ايضا ان يحتاج
قسم من انواع الحيوانات الدنيا ما يحتاجه غيره حين ارتقائه

خاصة ولعل في نفس الحلقات التى رتبها (دارون) شواهد
كثيرة على ما قلناه فليتتبع من شاء ذلك .

ولعل معترضا يقول ان ماذكرت وان كان نافعا في منع
اثرية هذه الاعضاء ولكنه مبنى على اصل التحول الذى
لا تقول به والتزام بنشوا الانسان وارتقائه في مستقبل الزمان
اللازم منه ايضا وقوعه في الازمنة الماضية اذ التفكيك في
النشو بين ماضيه واتيه بعيد جدا ان لم يكن مستحيلا
ويغفل هذا المتعرض عن الخطة التى نسير عليها في هذه الرسالة
من نقض اصول هؤلاء بارائهم وهدم ارائهم مبنيا على
اصولهم على انا لو شئنا لبدلنا ماذكرناه مجاراة لهم من قولنا
تحتاجه في تحولاته الاتية بقولنا في حالاته الاتية وبنينا
الجواب على ان نوع الانسان سيحتاج الى هذه الاعضاء
مع بقاء وصف الانسانية وعدم تبدل صورته النوعية
ونلتزم بمثل هذه التغييرات في الازمنة الماضية اذ الذي
علمنا من ضرورة الدين ان الانسان خلق انسانا ويبقى كذلك
نوعه واما هذه التغييرات الطفيفة التى لا تضر بالصورة
النوعية فما لم يعلم من الدين عدمها بل لعل فيه شواهد
عليها وكما لا يضر بنوعية الانسان ما نشاهده في كثير من

افراده من زيادة عدد الاصابع اونقصانه لا تضر بها امثال هذه التغييرات واذا كان تمدد الرأس واشتراك بعض الاعضاء بين شخصين متلاصقين ونحوهما من شواذ الطبيعة وانواع الهولات العجيبة التى هم اعرف الناس بها واولعهم بالفحص عنها لايضر بصدق اسم الانسان فبالاولى لاتضر به الزيادة في عضلات الرأس والاسنان ونحوهما من التغييرات الجزئية تدبر ماقلنا تجده واضحا انشاء الله تعالى.

وبالتأمل فيه يفتح عليك باب اخر للجواب عن هذه الاعضاء الاثرية وتقريره ان اقصى ما اثبته هؤلاء ان هذه الاعضاء كانت عامة في الانسان سابقاً وكان محتاجاً اليها وهو في غنى عنها الان وهذا لا يدل على انه كان حينئذ حيواناً حتى على اصولهم اذلا شك ان الانسان الذي وجد على معتقدهم عن عهد بعيد قد عاش في اوساط مختلفة ومرت عليه من اسباب المعيشة اطوار كثيرة فقبل اهتدائه الى صناعتي الطحن والطبخ كان محتاجاً الى زيادة الاسنان ولعدم معرفته بناء المساكن كان مضطراً لمقابلة عين الشمس فاحتاج الى جفن ثالثه ترد عنه زيادة نورها وقبل صنعة السلاح كان طريق وقايته من السباع منحصراً في الفرار فاحتاج الى قوة

في عضلات الرجلين وهكذا يقال في بقية الاعضاء التى ذكروها ثم بعد تقدمه في الحضاره واستخدامه لقوى الطبيعة واهتدائه الى تليين الطعام بالطبخ واختراعه لبناء المساكن وصناعة الاسلحة القوية استغنى عنها فازالتها عنه يد الحكمة الالهية التى اوجدتها له حين احتياجه اليها فسبحانه من خالق ما اعظم حكمته واجلّ قدرته واعلمه بمصالح مخلوقاته وارأفه بعباده .

ثم ان لهؤلاء في خصوص ثندوة الرجال ضرب اخر من التخرص وجنوح اخرى الى الخروج عن مقررات الشرايع وهو ان الانسان خنثوى الاصل اى كل فرد منه كان ذكراً و انثى . ثم انفصل النوعان وامتاز احدهما عن الاخر لزعمهم انها اثرية بقيت من عهد الخنوثة وهذا من الخرافات الوثنية القديمة التى كانت توصف الالهة بالخنوثة وقد اماته العلم دهراً طويلاً ثم احياه هؤلاء وهذا كما عرفناك سابقاً مناف لضرورى الاديان وعرفت الجواب عن كونها اثرياً الان .

ونزيدك هنا ان هذه الدعوى تنافي مقرراتهم ولا تصح حتى على اصولهم من تخصيص الخنوثة بالحيوانات والنباتات

الدائية وحكمهم بان الانسان قد ارتقى من اعلى الحيوانات الراقية من ذوات الثدي فان كان المدعى انه كان خنثى بعد تحوله الى الانسانية فيكذبه انه قد ارتقى عن حيوانات مرتقية تقسمت فيه الذكورة والانوثة من عهد بعيد وان كان المدعى بقاء الاثر من قبل ذلك فيرده انه في تلك الصورة لم يكن من ذوات الاثدية وبالجملة الانسان مذ كان خنثى لم يكن من ذوى الاثدى ومذ صار منها لم يكن خنثى .

ولا ادرى لماذا بقى اثر عار الخنوثة ظاهراً فى الانسان ولم يبق في ما هو ادون منه في سلم الارتقاء كذوات الحافر (١) ورأيت فى كلام احد اتباع هؤلاء وجهاً آخر حاصله ان الرجال كانت في احد ادوار الانسان القديمة تتناوب مع النساء في ارضاع الطفل فلما اشتغل الرجال بالاسفار والحروب اختص الارضاع بالنساء وبقيت الثندوه اثرياً في الرجال وهذا كاف في دفع عار الخنوثة ويصح حتى على انكار التحول ايضاً لانها من التغييرات التى لا تضر

(١) هذا على ماقال الشيخ في الشفاء وهذه عبارته وللفيل الذكر ثدى كما للانسان وذكورة ذوات الحافر لاثدى لها الامايشبه امهاتها منها وينزع اليها كما يعرض مراراً في الخيل

بالصورة النوعية .

ثم ان مما يناسب المقام ان جماعة من هؤلاء ذهبوا الى ان اول مخلوق اتصف بالمنظر الانسانى كان انثى نقله (المسيودوبى) قال وكان برهانهم على ذلك حركة البيضة البشرية واستحالاتها المتتابعة في سياق لايحيد ولا يتغير ثم قال وعليه اذا كان التركيب الانثوى احط من التركيب الذكرى فبرهانهم على ذلك منطق لايقبل الرد لان الانثى الاولى التى هي احط بكثير من المخلوقات التي قامت بتوليدها يصح ان يقال عنها انها كانت رسماً مقدماً لمستقبل النوع الانسانى وهى التى لابدّ ان تكون قد تلقحت من مخلوق طبقته ادني منها درجة واحدة حتى اصبحت والدة الجنس البشري (١) وقد ذكر ذلك بعد ما ذكر القول بان الانسان كان خنثي فى الاصل فيظهر ان هذا القول مخالف للاولى وان المناسب لهذا الرأى هو الثانى وان برهانه

(١) ماذنب الانسانيه الى هؤلاء حتي رموها بالحيوانيه اولا وبالخنوثيه ثانياً وبهذا العار ثالثاً فصبراً ايها الانسانيه الطاهرة المضامه وليفرخ روعك فما عليك بأس بعدما شهد بشرافه اصلك الانبياء ونزل بها الوحى من السماء .

منطقي بزعمه لايقبل الرد على انه بناء على الارتقاء التدريجي
لااعرف معنى لقولهم الاول مخلوق اتصف بالمنظر الانساني
فضلاً عن البحث عن كونه انثي اوذكراً فتامل فيه فانه
من العجايب .

وبقي شيء اخر نختم به الكلام في هذا المقام وهو ان
الاستدلال باثرية هذه الاعضاء انما يصح من المؤمنين
الذين يثبتون لهذا الكون صانعاً حكيماً تجل افعاله عن
العبث واللغو ويقولون بالقصد والغرض الغائي في خلق
الاشياء واما خصومنا الذين ينسبون الخلق الى الطبيعة
ويصفونها انها عمياء ويعزونها الى الصدفه وهي باعترافهم
صماء ويبنون فلسفتهم على ان الموجودات نتيجة الاضطرار
لاالقصد والاختيار فاى مانع على مذهبهم من ان يدخل في
تركيب السلحفات اجزاء تختص بالجمل اويوجد حيوان
تسعة اعشار اجزائه زايد لاينتفع بها ولا تستعمل وذلك
لايبعد من العمياء والصماء .

وايم الله ماهذا الا لان القصد والاختيار وان الكون
باسره فعل الصانع المختار امر انكرته السنتهم واعترفت
به فطرتهم فجحدوا بها واستيقنتها انفسهم ورجع واماماذكره

في اثناء كلامه من ناموس العود الى الاصل والوراثة ونحوهما
فستعرف الكلام فيه في المبحث العلمي .

(اتباع (دارون) والوجوه التي ذكروها على التحول)

وقد ذكر اتباعه وجوهاً آخر وبنقلها والجواب عنها
يتم البحث في خلق الانسان .

(الاول) مانقلوه عن (مثشينكوف) وهو على ماوصفه
احد هؤلاء كان الساعد اليمنى (لباستور) في حياته وهو
الان خليفته على مااحتكره معمله وملخص هذا الدليل
ان رواسب دماء الحيوانات تتشابه اوتتفارق بنسبة مشابهة
الحيوانات اومفارقتها فرواسب دم الانسان تختلف عن رواسب
دم البقر ولكنها تشابه رواسب دم القرد والحاكم اليوم
تستعمل هذه العملية للتميز بين دم الانسان والحيوان وقد
عظم احدهم امر هذا الدليل حتي قال ان مذهب (دارون)
لم يزل ظنياً وهذا الاكتشاف نفى عنه الريب وازاح عنه
كل شبهة .

ويقال في الجواب ان هذا ليس سوى مشابهة خفية بين
الانسان وغيره فان كانت في المشابهة كفاية لاثبات هذا
الرأي فقد استدل (دارون) منها بوجوه كثيرة هي اقوى

من هـذه واوضح وقـد اغنته تلك المشابهات الكثيرة
الواضحة عن هذه المشابهة الواحدة الخفية والا فهذا الرأى
لم يزدد وضوحاً بهذا الاكتشاف .

(الثانى) ماذكره (بوشز) الالمانى . وحاصله ان مزج
دم الحيوان بالحيوانات البعيدة في النوع منه يوجب قتل
كريات دمه المفضي الى موته . فاذا اخذت ارنباً وحقنة بدم
هرّ عاجل في هلاكه . بخلاف الحيوانات القريبة كالحصان
والحمار . وقد مزج (فريدانثا) من اهالى برلن دم القرود بدم
الانسان فكانت النتيجة مختلفة بحسب اختلاف القرود في
الارتقاء فكان سماً في القرود الدنية . وغير مضر في القرود
الراقية كالشمبانزى فيظهر منه وجود قرابة دم بينهما انتهى .
وهذا كسابقة لايدل الا على مشابهة دموية بين الانسان
وارق القرود واين تقع هذه المشابهة واشباهها مما يروم
المستدل من اثبات التحول واتحاد الاصل .

على انى قد عثرت قديماً — فيما اظن — على تجارب تنافي
تجارب (فريدانثال) المذكور .

ولا ادرى الان موجباً للفحص عنها ونقلها بعد ما كانت
تجاربه بعينها غير منطبقة على اصوله بل دالة على خلاف

مراده وذلك لان القرود الراقيـة والمنحطة باسـرها في
مرتبة واحدة من القرب الى الانسان والبعد عنه . اذ القرود
باصنافها نشأت عن الاصل الذى نشأ عنه الانسان بطوائفه
(فرع القرود من جهة وقوع الانسان من اخرى) والقرود
باصنافها تنتهى الى الواسطة التي توصلها الى ذلك الاصل
المشترك كما ينتمى الانسان اليه بواسطة الشيخ ابن جاوى
الاتى وصفه قريباً فكما ان الانسان بطوائفه من الزنجى المنحط
الى القوقاسى الراقي ينتمي جميعه الى واسطته ومنه الى الاصل
المشترك كذلك القرود تنتمى باصنافها اليه من ادناها الى
الشمبانزى وان كانت مقتضيات المعاش وعـوارض البيئة
والوسط ونحوها من الاسباب التي يعتمدون عليها اوجبت
سرعة ارتقاء بعض او انحطاطه فتولدت الاصنـاف منها
كما تولدت الانواع للانسان بتلك الاسباب بعينها وبعد هذا
نقول لو كانت القرابة الدموية موجبة لعدم تضرر الانسان
بدم غيره لما اختلفت التجارب في اصناف القردة ولكانت
دماؤها مضرة جميعاً او غير مضرة كذلك . فهذه التجارب
لاتدل الاّ على عدم تضرر الراقى بدم راق آخر وتضـرره
بدم الدانى منه وهذا امر لايهمنا ولاننكره . نعم : لو كانت

الطوائف الدانية من القرود ابعد من اصل الانسان لكان
له وجه ولكنه تخالف اصول هؤلاء ولازمه تحول احد
فرعى الانسان والقرد من الاخر وهذا ما لا يقوله احد من
زعماء هذا المذهب ويصرح بخلافه من توثر عنه هذه الفلسفة
فتأمل فيما نبهتك عليه تجده واضحا نافعا لك فى كثير من
المباحث الاتية :

(الثالث) ما ذكره (المسيودوبى) وحاصله انه ثبت في
علم تشريح المقابلة تشابه هيكل الانسان العظمى من قوم
الهوتنتوت (وهم قوم من سكان اوساط افريقيا يعتقدون
انهم ادنى البشر رتبة واقربهم الى الحيوان) وبين هيكل
العظمى للقرود من اورانغ اوتانغ (قسم من القرود يعتقدون
انها اقرب الحيوانات الى الانسان وانها ارقى القرود) وان
الاعضاء البدنية والوظايف الحيوية واحدة في الجنسين
والاختلاف الوحيد الفارق بينهما فهو في الزاوية الوجهية
فانها ناقصة في القرود من ثمان الى عشر درجات واما الاختلاف
في طول ذراعى القرد وكبر ابهامى رجليه فهو الاختلاف
الاخير ما هو الا ليسهل عليه استخدام الرجل في مقام اليد
والاعضاء الصوتية في القردة الكبيرة مشابهة للتى في الانسان

الا ان كيسين غشائيين قائمين في جانبى حنجرة القرد يعارضان
في تلفظه الكلم انتهى .

ويقال في الجواب ان هذا ايضا ليس الا استدلالا بالمشابهة
لكن مع ترك امور كثيرة من وجوه المخالفة ولا ادرى
أذلك عن تعمد او عن سهو او عن جهل وايا كان فبين
الانسان وارقى القرود مسافة عظيمة باعتراف رؤساء هذه
الفلسفة قال (برناردوان) في آخر مقالة له اوضح فيها
بزعمه علاقة الانسان بالقرود ما ترجمته ان بين اسمى القرود
والانسان هوة عقلية لا يسبر غورها وهذه الهوة هى التى
تجعله سيد المخلوقات وامثال هذا في كلماتهم كثيرة لا نرى
اطالة الكلام بذكرها .

فاذا ثبتت هذه الهوة العقلية بين الانسان وارقى الحيوان
واعترف (هيكل) الد اعداء القول بابداع نوع الانسان
بان في الانسان حلقات كثيرة مجتمعة لا توجد في الحيوان
الا متفرقة فلا نبالى بتقاربهما في الاعضاء الجسمية فالانسان
انما يكون انسانا بقوة قواها العقلية واقتداره على حل
المشكلات العلمية وتمكنه من الحكم على الموجودات الغير
الخارجية ونحوها مما تخسأ عنه ارقى القرود وهذه الهوة

هى الـتى الجأت (ليل) وهو من يقتفى (دارون) آثاره
(في الجيولوجيا) الى القول بالتحول الفجائى فيه و (يختبر)
على شدة تعصبه على نوع الانسان يقول في كلام (ليل)
فمن اراد تصديق هذا الرأى فهو مخير وفي مسئلة (كيف
تخلص عقل الانسان وصورته من عقل الحيوان وصورته)
يعترف بانه ليس عنـده من المواد ما يكفى للجواب عن
هذه المسئلة عـلى ان الامد بين الجسمين بعيـد والشوط
بينهما بطئ فان (دوبنتون) الطبيب الفرنساوى صاحب
الاكتشافات في علم الاصـداف بين سنة ١٧٦٤ الفرق
الجوهرى بين بناء الانسان والاورتغ اوتنغ اقرب القردة
الي الانسان واثبت علماء التشريح ان في ادمغة القرود تلفيف
لاوجود له في ادمغة الناس يسمى بالتلفيف القردى الى غير
ذلك مما لم نتكلف استقصائه الان لانا في غنى عنه بما عرفناك
من ان الفارق الاعظم بين الانسان والحيوان هو كمال الانسان
في نفسه لافي هيئة جسده وتركيب بنيته . وقد احسن من
قال (فانت بالنفس لابالجسم انسان) فمع تلك المزايا النفسية
او كما سماها (برناردوان) الهوة العقلية لانكترث بما بين
الجسدين من المشابهات ولولاها لم تنفع بما بينهما من المباينات

بل لعلنا كنا حينئذٍ نصـدق رؤيا مسيو (دوبي) الاتية
ونحقق رجائه من دفع الحد الفاصل بين المملكتين والحاق
القرد بالانسان (راجع اخر الكلام الذي تقدم نقله عن توحيد
المعضل)

واما ما للقوم في تقريب هذا المدى البعيد والبعد الشاسع
الذي بين عقل الانسان ومايقابله في الحيوان (انستنتك)
فستعرف الجواب عنه في البحث العلمى انشاالله

ثم ان (المسيو دوبي) الفرنساوى رأى حلماً لذيذاً بناه
على اصلى (لامرك) من اختلاف تشكل الاعضاء باستعمالها
اواهمالها وبضرورات المحيط فقال

اذا كانت القرود لاحـدى الضرورات تلتزم ان تقف
مستقيمة وتتعود على الوقوف فلاريب ان ارجلها تتكيف
شيئًا فشيئًا من جراء استخدامها اياها في السـير وكذلك
تكسب عضلات ساقاتها من عملها الدائم طولاً ورقة وتأخذ
ربلاتها بالنمو والسمن ويمثل ذلك اذا امتنع عن استعمال فكيها
في مقام السلاح وهما اللذان تنهش الاشياء بهما وتمسكها وتقلع
بواسطتها واقتصرت على استعمالها للمضغ فلايبعد ان تتحسن
زاويته الوجهية كثيراً وتصغر فتحتها ويقصر البوز شيئًا

فشيئاً وتكسب اسنانه شكلاً مستقيماً ثم تقوم بتأليف
الاسر وتتبعها بالمجتمعات وتبتدع لها حاجيات بما توصلت
اليه من ضروب الصناعة وتضطر ان تغير على الانحاء المجاورة
لها وتقوم في حصر السلطة في افراد من نوعها وبما اكتسبت
من الحاجيات تصبح الاشارات غير كافية لنوعها فتجتهد في
تعديل صوتها دائبة في تمرين حناجرها والسنتها وشفاهها
لتولد بواسطتها الفاظاً وكلماً . فقد ماثلت الجنس البشري
في جميع اشكاله وافعاله . يقال له خيراً رأيت وهكذا
فلتكن الاحلام . واذا رأيتها اخترعت آلةً رصدية كدس
(هدلى) اوتنبهت لقاعدة حسابية دقيقة مثل . (لوغارتم)
او اكتشفت قمراً اخراً للمشتري اوحلقة اخرى لزحل اوسياراً
ابعد من نبتون فاقرئها السلام

ونحن نقف في الكلام مع (دوبي) على هذا الحد . ثم ندعه
بين مخالب ساير اصحابه النشويين القائلين بامتناع تحول
القرد انساناً الحاكمين بان ارتقاء القرود قد بلغ حده ووقف
عنده مثل (لانج) الانكليزى وغيره ممن كتب منهم في
هذا الموضوع . ولا ندخل معهم في هذا النزاع البارد بعدما
عافانا الله منه ببركة الدين القويم وبما منحنا به من الطبع

السليم بل نقف كالمتفرج عليهم بقلب معتبر مما ابتلى به
هؤلاء وطرف مستعبر على ما يقاسى العلم والانسانية من
هذه الاهواء .

(الثالث) ظهور بعض الاعضاء والصفات الحيوانية فيه
كظهور عفر طويلة من الشعر في ابدان قصيرة الشعر فانه يدل
على ان الانسان متسلسل من اصل ذى شعر كث فظهرت
فيه بناموس العود الى الاصل والا فمن اين اتت تلك الاعضاء
والصفات ان لم تكن كامنة فيه وموروثة من اجداده .
وهذا الوجه ايضاً قد اشار اليه (دارون) في كلامه المتقدم
ولكن اتباعه قد اطالوا الكلام فيه وعظموا امره . ويقال
في الجواب ان ما ذكروه بعض من شذوذات الخلق وعجائب
المخلوق التي تقع في كل عصر ومصر اقسام غريبة منها ثم
تجمعها صفحات التاريخ وتهديها الى العقلاء ليزدادوا يقيناً
بصدق قول خالقهم . (سورة آل عمران)
(هو الذى يصوركم في الارحام كيف يشاء) والى هؤلاء
العلماء الذين رفضوا الدين لزعمهم انه حجر عثرة في طريق
العلم والزموا انفسهم بالتعليل الطبيعي لجميع الاشياء

ليعلموا انهم مهما تقدموا فان البعد بينهم وبين معرفة علل
الاشياء اكثر مما بين الارض والسماء ولا يحتمل في كثير
منها بل في اكثرها ما ذكروه من وجود تلك الشواذ . في
الاجداد وانتقالها اليه بناموس الرجوع واليك بعضها نقلاً
عمن يقول في هذا الفصل (قد عنّ لى ايراد الحوادث التى
كانت على مشهد من اولئك القوم اصحاب الجد ومحبي الحقيقة
الذين اتوا على ذكرها وابانوا وصفها وكيفيتها وهم الذين
يفرون من العجائب ولا يقرون بالمعجزات)

(١) كان في مدينة (ماكاو) غلام صيني يبلغ من العمر
اثنى عشر حولاً يحمل فوق صدره جنيناً رأسه مطمور في
صدر حامله وكان مكمل التركيب يتدلى من اعلى صدره
حتى ركبتيه ويشكل تركيبه تركيب حامله وكان له شعور
كثير حتى انه يتأثر جسمه وتتشنج اوصاله لاقل لمس خفيف
وكان حامله ايضاً ينفعل بذلك ويشعر بذلك الألم بعينه ويصرخ
باعلى صوته متألماً اذا كان القرص قوياً .

(٢) فتاة لها من العمر ثلاثون حولاً تشبه الهول السابق وقد
قام بمراقبتها واشتغل بتفحصها بكل امعان (غاسبار بارتولان)
وذكر عنها انها كانت تحمل تحت الثديين جنيناً بلا رأس

متمم الخلق ذا تيقظ عضلى مستقل عن ارادة حاملته اذا
اخذ احد في دغدغته بعنف يرفس ويدبدب .

(٣) فتاة اخرى ورد فى تقرير (وينزلوا) انها تحمل على
جنبها الايسر ابنة اخرى وكانت تبول وتتغوط بمعزل من
ارادة حاملتها وكانت لكليتهما شعور واحد اذا لمس جسم
الصغيرة ولو خفيفاً شعرت به الكبيرة وبقيت الى الثالثة
عشرة من عمرها . هل كانت فى اجداد هؤلاء مزدوجة
فانتقلت بناموس الرجوع اليهم .

(٤) ولدت في اسبانيا سنة ١٧٧٥ ابنة مزدوجة الرأس
ورأسها مسبوكان معاً نظير ما يمثلون (يانوس) وكان
الفمان الذان في رأسيه يرضع كل منهما على حدة ثدياً من
ثدى الام وعندما تكتفى المدة يرفض الفمان الثديين
في وقت واحد وكان يسمع بكائها في وقت واحد ايضاً
قضوا جملة سنوات يسحبونها من بلد الى بلد ويعرضونها
على الناس لدراهم يتقاضونها من المشاهدين .

(٥) مولودة فى (سردينيا) كان لها رأسان وصدران
واربع ايدى كل ذلك على ساقين فقط وكان مبدأ انسباك
الجذعين واتحادهما في اعلى السرة ولما توفيت احداهما

لحقت الأخرى بها على الفور. ماتت في باريس ١٨٢٨ واجرى
(جوفريسان هيلو) الكشف التشريحي وقدم التفصيل
الاتى: قلبان في شغاف واحد كبد واحدة امعاء مزدوجة
الى المعي المعروف بالاعور رحمان فتحتهما في ذات الفرج .
سلسلتان فقاديتان تتحدان عند العصعص .

والقضايا المنقولة عن الشواذ في كتب الشرقيين الاقدمين
والغربيين في غاية الكثرة وانما اقتطفنا بعضها من هذا
الكتاب لان مؤلفه معطل بحث من ابعد الناس عن التصديق
بالعجائب .

فهل يمكن تعليل هذه الشواذ المتنوعة بحيوانات كانت
لذلك في الاعصار الجيولوجية فانتقلت الى هؤلاء التعساء
بناموس الاتافيسيم وان لم يمكن ذلك فلتكن الشواذ التى
فيها بعض الشبه بالحيوانات من هذا القبيل .

وليعللوا هذه بما يفرضونه لتلك التعليل . ونقل ايضاً عن
تقارير الندوة العلمية البارسية . ان احد الشيوخ توفي في
سن الثانية والستين ولدى الفحص التشريحى وجدوا فى
جسمه انقلاباً من اهم الانقلاب واغربه وذلك ان جميع
الاعضاء التى مركزها الطبيعى عادة في الجنب الايسر

شاهدوها موضوعة في الجانب الايمن وكذلك الشريانات
والعروق والامعاء . قد شاهدوا فيها هذا التبدل بعينه
(قال) ويوجد لها امثال عديدة ضربنا عنها صفحاً :

فهل يقول هؤلاء كانت في الحيوانات البائدة حيوانات
مقلوبة ولها بقايا عظام مطمورة في بعض كهوف بولونيا وقد
تولد هؤلاء منها وورثوا الانقلاب عنها ام يضطرون الى
الاعتراف بقدرة خالق الكون الذي اذا اراد شيئاً ان يقول
له كن فيكون ولا اقل الى تسليم ان في الكون نواميس لا
تعرفها فلتكن هذه المشابهات الجزئية الحيوانية مثل
تلك الهولات العجيبة مسببة عنها . ومما رأيته بنفسي من
هذه الشواذ رجل بين اصبعين من اصابع احدي رجليه
غشاء كالذى يكون في رجلى البط ينقبض اذا جمع بين
اصبعيه وينبسط اذا فرق بينهما وهذا ايضاً من الشواذ التى
لا يمكنهم القول بانها منتقلة بالوراثة اذ ليس في اجداد
الانسان على اصولهم طيور عائمة (فيما اظن) ولعل لما ذكرنا
استطرد (دارون) ذكر هذه الشواذ ولم يجعله دليلاً ولا غرو
فانه رجل القوم وزعيم هذه الآراء

وهذه الشواذ على انها لا تجديهم وجودها لابد من التثبت

التام فيما ينقلونه منها . فالقوم مولعون بنقل الاكاذيب فيها
والمبالغة في امرها ولا يمضى قرن بل وبعض قرن الاويه لمنون
بظفرهم على الحلقة المفقودة وتناقل الجرائد والمجلات ذلك
ثم لا تلبث حتى تحكم المحاكم بعد الفحص بتكذيبهم .
وقبل هذا ببضع وثلاثين سنة شاع وملأ الاسماع ان فتاة
اسمها (كراو) من الحلقة المفقودة بين الانسان والقرد ولشيوع
خبرها وتناقل الناس ذكرها جرت مذاكرة طويلة في
امرها في مجمع العلم البريطاني . فحكم انه ليس فيها من
الشواذ الداعية الى مثل تلك الاقوال غير غزارة الشعر وطوله
على بدنها وانها كساير بنات جنسها الساكنات شرقي الهند
في ما خلا الشعر وان ماشاع عن وجود الذنب لها كاذب بل
كل ماشاع عن اذناب لبعض الناس كاذب او قابل الريب
ووقع قريب من ذلك قبل اليوم ببضع سنين
(الرابع) عظام نخرة وبقايا اجساد بالية تجمع من اعماق
الارض وزوايا الكهوف ويدعى انها بقايا الانسان الاول
او المتوسط بين الانسان والقرود الشبيهة به المعبر عنه عندهم
بالانسان القردي وكان عثورهم عليه امنية يعللون بها انفسهم
واحتمالاً يقوون به اساس فلسفتهم ويماطلون به خصومهم اذا

تقاضوا هم الصور المتوسطة فكان يقول (بوشه) من يقول
انا لا نجد غدا جمجمة قد نضطر لوضعها بين القرود الشبيهه
بالانسان والانسان ولعله كان يقنع به بعض خصومهم ممن
لا يدري ان الحكم في الحال لا يكفيه احتمال
الوجود في المستقبل لولا ان (شفهوذن) يسد عليهم باب
الامل ويقول لا يرجى العثور على اثار الانسان القديمة الا في
احوال غير اعتيادية ولكنه ربما ثاب اليه رشده وعرف
انه ليس من مصلحته ان يسد باب الاحتمال ويبقى بلا مجن
في موقوف الجدال (فقال) ربما لا يحرم العلم ثمرة هذا
الاكتشاف ثم ارتقى ذلك الاحتمال فصار يقيناً وتحول
الجواب دليلاً فصار يدعى العثور على الحلقة المفقودة .
والظفر ببقايا الانسان الاول . والدعاوى في ذلك كثيرة
واني اقتصر على اجدرها بالاعتبار كما قال احدهم زاعماً
كفايته في الاستدلال على وجود كائنات متوسطة بين الانسان
والقرود الشبيهه به واحدثها مما بلغنا منها لانها اكتشفت
سنة ١٨٩٢ او سنة ١٨٩١ اعنى ماادعى (اوجين ديبوا)
اكتشافه في جزيرة جاوه حيث زعم انه قد وجد فيها جمجمة
واسناناً وعظم فخذ وظهر له من قياس تجويف تلك الجمجمه

ان دماغ صاحبها متوسط بين ادمغة القرود والبشر اوبين جمجمة الجيبون وبين جمجمة (ينانذرتال) التى هى اقدم ماعثروا عليه من بقايا الانسان (١) في اروبا ومن شكل عظم الفخذ ان صاحبها منتصب القامة ويده اقرب شكلا الى يد الانسان . ومن شكل الجمجمة على قوة للنطق في صاحبها يمكنه بها التلفظ بالمقاطع البسيطة فسماه القرد الانسانى المنتصب وعده الحلقة المفقودة او المتوسطة ووضع شجرة صور فيها تدرج الارتقاء بين الانسان والقرد لايتعلق لنا غرض في نقلها والظاهر ان اراء اهل التحول اتفقت اوكادت تتفق على ان ابن جاوى هذا هو الضالة المنشودة والحلقة المفقود . و افرح احدهم بهذا النسب الجديد والمجد التليد تراه يعبر عن الانسان . بابن جاوى كما يعبر عنه الادمى بابن ادم . وليست يد الشيخ ابن جاوى على هؤلاء يد واحدة بل له فضل آخر وهو تعريفهم بمهد الانسان الاول وهو امر طال فيه اللجاج و كثر فيه الحجاج حتى ظهر لهم من وجود هذا العظام في جزيرة جاوه ان الانسان الاول وجد فى (الارخبيل) الهندى ومنه نزح الى سائر

(١) ويقال له الانسان (البلوستوسينى) نسبة الى عصر الاول من عصر الدور الرابع ويقال له العصر الجليدى ايضاً .

انحاء الارض في بيان طويل ليس هنا موضع نقله .

وانى ارى ان هذه الدعاوى لاتتم لاحد بمجرد هذا الاكتشاف الا اذا كانت له حاسة اخرى شبه الاحساس من بعد (التليباتي) فيرى بها هذا الشيخ منتصب القامة حاملاً تلك الجمجمة ويرى الارض في زمانه قفراً من الانسان ثم يشاهد توالد الانس منه وارتقائه زماناً غب زمان والا فكيف يري العاقل ان يستدل بعظام بالية قاست من عوامل الطبيعة مدى القرون الخالية ما غيرت مقدارها ولعبت باشكالها وفعلت بها مالا تفعل بامثالها . ثم يعلق عليها شروحاً يبنى عليها صروحاً وبعد ذلك كله يحكم بتسلسل الانسان منه . ولاادرى كيف عرف ان هذه العظام بقايا حى واحد وهل يكفي لذلك وجودها في حفرة واحدة . اليست الاحتمالات في ذلك تناهز المائة والمأتين . كيف وقد انكر جماعة من العلماء منهم (فرشو) كون هذه البقايا لجسم واحد . ولاادرى ايضاً باى طريق استكشف انتصاب القامة من عظم الفخذ وهذا (بختر) لايرى انتصاب قامة الانسان طبيعياً كله بل يراه مستنداً الى التربية والعادة . ثم

هب ان صاحب الجمجمة كان منتصب القامة فهذا لا يدل
على انه ارقى من القرد بل ولا على انه ليس بقرد لان (بختر)
يرى المشي عموديًا موجوداً في كثير من القرود ويقول مع
ذلك بل ربما كان فيها اكثر لولا انها تقيم غالبًا على الاشجار
(فالجيبون) وهو اصغر القرود الشبيهة بالانسان يكون
اكثر قيامه منتصبًا اذ يكون على الارض الخ .

واما توسط دماغها بين القرود والانسان فليس بدليل على
ان صاحبها متوسط بينهما . اذ من الانسان من دماغه اقل
من بعض الحيوان . او من الحيوان ما يزيد دماغه على بعض
الانسان . وقد ذكر (لانج) الانكليزي ان متوسط دماغ
القرود الكبيرة نحو عشرين اوقية بل تزيد عليه في بعض
الاحوال — وذكر ايضاً — ان من البله من لا يزيد متوسط
دماغه على عشر اواق . اذاً فيوجد في الانسان من دماغه نحو
النصف من بعض القرود بل اقل فلعل هذا الشيخ المرضي
لعمود النسب عند هؤلاء كان معتوهاً ابلهاً دعته بلاهته
الى الضرب في مجاهل جاوه فدلته الى منيته واداته في
حفرته — او كان من بعض اقسام القرود .

وقد ذكر (الجيولوجيون) من حيوانات الارض

الوسطي (ميوسين) قسمًا منها من جنس (الاودنغ) قامته
كقامة الانسان تقريبًا ولا يبعد جريًا على ناموس تناسب
الاجزاء او كما يسميه (دارون) النمو المشترك ان تكون
ادمغته قريبة من ادمغة البشر ولا يستبعد بقاء بقاياها الى
طبقة العصر الاخير (بليوسين) .

واما استكشافه من شكل الجمجمة قوة النطق في صاحبها
الخ . فانا ندع له الان مطالبته بوجه هذا الاستكشاف ولكن
نقول ان ذلك لا يدله على انه ارقى من القرود — كما بني عليه
دليله — وذلك لان القرود فيها قوة النطق بل لها لغة خاصة
طالما اشغلت افكار حكماء الغرب وحاولوا معرفتها الى ان
وفق لها الاستاذ (غرنر) فرحل الى مجاهل افريقا بعد ما
اعد لرحلته معدات كثيرة ونشرها قبل رحلته في مقابلة
ضافية ثم قاسى فيها ما قاسى من حرها وحمياتها وعرض
نفسه لوحوش انسها ووحشها الى ان جمع منها قاموسًا وكتب
بالفنوغراف مأتي كلمة من كلماتها منها كلمة (اخرو) معناها
الشمس والنار ونحوها وكلمة (ككشا) ومعناها الماء والبرد
وكلمة (غشكو) ومعناها الطعام والاكل . فهذا الحيوان
بلغ مرتبة سامية في النطق يكاد ان ينظم ثانية من بحر

الكامل وينشأ مقالات طبيعية وفكاهية ملاها سخف وباطل
واين منه ابن جاوى المسكين الذي قصاراه النطق بالمقاطع
البسيطة .

ثم ان ما بنى عليه اكتشافه من جعل واسطة الانسان ارقى
من القرود الراقية الحالية فهو مما لا يتعين على مذهب (دارون)
واتباعه بل المتعين ان تكون واسطة الانسان ارقى من
القرد لا من القرود الحالية التى بلغت شأواً عظيماً في الارتقاء
بل لعل ارتقائها عن اصل هو احط من اخس القرود ينافي
الارتقاء التدريجي الذي هو مذهب (دارون) هذا ما يقتضيه
بادى النظر وللكلام عليه محل آخر .

هذا والعلم قد انتهى سيره في هذا العصر الذهبي الى المر
والمعول وصار عليهما في اصل الانسان المعول . والحدسيات
المبتنية على الحفريات تقوم اليوم مقام البرهانيات المؤسسة
على الاوليات . فلا يستبعد اذ ان يتجدد بعد هذا الاكتشاف
عظام آخر فيوجد للانسان جداً آخر وبه يبلغ شرف ابن
جاوى مداه . فيعطل من عقد هذا الفخر ويحلى به سواه .

اذاً فالاولى بنا ان نذكر كلاماً كلياً فيه المقنع للمنصف
في امر هذا الشيخ وما سبقه او سيلحقه من الحفريات

التى سوف تتحفنا بها (البالنتولوجيون) . قد عرفت ان
المعول في الفرق بين الانسان وغيره على الكمالات النفسية
والقوى العقلية وسمعت اعترافهم بان بين الانسان وغيره
هوة عقلية .

اذاً فما كان من ارباب هذه العظام البالية موقعة الجهة العليا
من هذه الهوة فهو انسان وان كان فيه مع انسان اليوم بعض
المباينة وان كان موقعة الجهة الدنيا منها فهو حيوان وان
كان مع الانسان شديد المشابهة ولا نضطر كما قال (بوشه)
الى ان نضمه بين الانسان . بل يتردد امره بين ان يكون
انساناً او حيواناً . وليست للقوى العقلية بقايا في الطبقات
(الجيولوجية) لكى تعرفنا بانه من اى الصنفين وملحق
باى المملكتين وان اعتمد في معرفتها الى مقدار الدماغ
مستظهراً ذلك من قياس الجمجمة كما فعله (اوجين ديبوا)
رجعنا الى الحد الذى وضعه (جرايتوليه) و(بروكا) لاقل
ثقل للدماغ يبتدىء عنده وجود العقل الانساني وهو (١٣٢)
وقيه فان كان دماغه اقل من ذلك الحقناه بالحيوان والا
حكمنا بانه انسان

ثم لو سلم لهؤلاء المستدلين بهذه العظام جميع حدسياتهم

وتخيلاتهم في امرها فانه لايثبت بهـا الا وجود قسم من
القرده . او من حيوان اخر اقرب الي الانسان من القرود
الراقية الموجودة . واين هذا من تسلسل الانسان عنه وكونه
اصلاً له . ولعل (اوجين ديبوا) وجد مع البقايا مشجراً في
النسب فاخذمنها صورةً فتوغرافية

وهنا سوأل جدير بالتأمل وهو ان من المقرر عند المحققين
من اتباع (دارون) انه لايجوز البحث على هذا الرأى عن
صورة متوسطة بين الانسان وبين الكور لابل بينه وبين
اجداد مجهولة نشأ فرع الانسان من جهة وفرع القرد من جهة
اخرى

ترجمة (بختر) و (ص ١٤٦) وفي (ص ١١٦) منها ان
كثيراً من (الجيولوجيين) و(الزلوجيين) و(البالنتولوجيين)
يبحث عن صور متوسطة بين نوعين موجودين وذلك على
رأى (دارون) خطأ لان الصـور الحاضرة غير آتية بعضها
من بعض رأساً بل كل منها منتهى سلسلة تحولات طويلة
ولذلك يقتضى اذا اريد الجمع بين صورتين معلومتين ان
يبحث لهما لا عن صورة تجمع بينهما رأساً بل عن اصل مشترك
مجهول وهذا الذى حكم بعدم جـوازه وحكم بكونه

غلطاً صار واجباً وصحيحاً وادعى وجوده واستدل على اصل
الانسان كما سمعته من هذا المستدل و (بختر) بنفسه يقول
(ص١٤٨) وانا من رأي (جورج بوشه) في هذا المعنى حيث
يقول من رسالة في الانتروبولوجية مانصه (ان البالنتولوجية
البشرية ربما يظهر لنا يوماً من الايام اجساماً حيةً نحتار فيها
ابشر هى ام قرود بشرية وهو يقول ايضاً من كتاب في كثرة
الفروع البشرية (سنة ١٨٦٤) من فصل منه مانصه من يقول
انا لانجد غداً جمجمة قد نضطر لوضعها بين القرود الشبيهة
بالانسان والانسان) و (بختر) ايضاً من اشـد الناس فرحاً
باكتشاف القرود الشبيهة بالبشر واكثرهم اعتذاراً عن فقدان
ما هو اقرب الى الانسان وامثاله مما هو كثير في كتابه

فباى الامرين يرون هؤلاء ان نأخذ وما ذا نطلب اذا
اردنا البحث عن الانسان الاول فهل نطلب صورةً متوسطةً
بين الانسان وراقى القرود كما فعله هذا المستدل ونحقق به
رجاء (بوشه) و (بختر) من رأيه

اذن وقعنا فيما لم يجوز (بختر) وحكم علينا بالغلط في
صف كثير من (الجيولوجيين) و(الزلوجيين) و(البالنتوجيين)
ام نطلب اصلاً مشتركاً مجهولاً كما صوبه اولاً . واذن

خيبنا رجائه مع (بوشه) واذهبنا تعبه ادراج الرياح ولا ندري كيف نرضي (لويس بختر) ولم نقع في شرك التناقض ثم ان (بختر) استشهد على كلامه المتقدم يقول (هليار) (ان الاجسام الحية المقيمة بعضها بجانب بعض قد تكون مختلفة جداً ولا حاجة الى ان يكون بينهما صور انتقالية لانها لم تتكون بعضها بجانب بعض ولئن كان جدها واحداً الا انه يمكن ان تكون مختلفة جداً) وعلى هذا ينتقض اساس هذا الدليل بل جميع الوجوه التي ذكروها على جعل الانسان والقرد فرعين لاصل واحد المبنية على المشابهة فامل الانسان اذا من الاصل الذي اشتق منه البعير وان اختلفا جداً ولا ينتقض به اصلهم في اصل الانسان وحده بل يسري الى سائر ما الفقوه في اصول سائر الحيوان اذ مبناه غالباً على المشابهات فعليهم ان يعالجوا هذا الداء العضال الذي جعل حيوة فلسفتهم في معرض الزوال .

واني اذكرك هنا ما نبهتك عليه في المقدمة وافصل لك هنا ما اجملته هناك واقول .

من المقرر في محله الواضح لدى اهله ان الدليل النقلي لا يجوز التمسك به في امثال هذه المسائل الا بعد احراز صدق

الناقل وعدم خطائه في ما نقل كيف السبيل لنا امة الشرق الى الاول وجميع ما نقل في مسئلتنا هذه وما ينقل في اشباهها من المسائل انما هو مرسل بلفظ وجد . او اكتشف او منقول عن رجل مجهول عندنا لا نعرف شيئاً من حاله سوى انا نرى اسمه مصدراً بلفظ (مستر) او (مسيو) واقصاه وصفه بالاستاذ او نسبته الى دولة معروفة (كفرنسا) و(بريطانيا) ونحن نعلم ان امة الغرب كسائر الامم فيهم المتورع من الكذب والمولع به فاذا كنا لا نزال نسمع الكذب الفاحش من اناس معروفين يعتقدون بالدين ويعلمون ان الكذب من اعظم المحرمات ويخافون مغبته في حال الحياة وبعد الممات وقد يكون كذبهم في امر طفيف لا يرفع لهم قدراً ولا ينوه لهم ذكراً فكيف نأمنه ممن لا يدين بدين ونطمئن باخبار من لا وازع له من الكذب ولا رادع له مما يخلد ذكره في صحايف العلم ويجعله في عداد المكتشفين ويؤيد عقيدته ويظهره على خصومه .

اليس (كوك) ادعى امس اكتشاف القطب ونشر مسافرته فتداولت نقلها المجلات وامتلئت بذكره واطرائه

اعمدت الجرايد وصفق له العالم المتمدن تصفيق استحسان
واخذوا بعضده على خصمه فتسلقوا (پرى) بالسنة حداد
ثم لم يلبث فواق ناقة اونحر جزور حتى نشرت جريدة
(النيويورك تمس) مقالة اظهرت فيها حاله وابانت كذبه
ودجله وانه تواضع مع رجلين بان يصنع له احدهما (واسمه
لوس) خرائط وارصاداً ويعطيهما ثمانمأة جنية ويعطى (لوس)
مأة جنية اخرى متى قبلت هذه التقارير في (كوبنهاغن)
فلم يفعل بل اعطاها (٢٥) جنية فقط فافشيا سره وكان
آخر امره ان طرد من نادي الرحالين واختفى ولم يظهر له
اثر وندم اهل (كوبنهاغن) على الاحتفالات التى اقاموها
له .

واذا كان (كوفيه) وهو الاستاذ الشهير الذى مهد السبيل
(لدارون) بوضع اساس علم (البالنتو لوجية) يكذب
(بوفون) زميله ويصرح باختلاق ما نقل عن القرود الشبيهة
بالانسان اتحمد منا المبادرة الى تصديق من دون (بوفون)
ثم هب ان المخبر ممن عاشرناه قروناً واختبرنا صدقه سنيناً
ولكنه هل يخبر الا عن عظم مرت عليه احقاب طويلة
وقاس من التقلبات الجيوليجية والعوامل الطبيعة ماغير

شكله ومقداره فامله لذلك غدا بين عظم الانسان والجيبون
فمن اين يعلم بقائه على حالته الاصلية ولم يتأثر بالمؤثرات
الكثيرة التى مرت عليه مدى الملايين من السنين وانت
اذا نظرت الى سرعة تغير الاجسام الاليه واختبرتها في عدة
اشهر قليله ثم قستها بهذه الاحقاب الطويلة وضممت اليه
انه كان معرضاً لعوامل كثيرة معلومة ومجهولة علمت لو
انصفت ان التماس معرفة اصل الانسان من هذا الطريق
التماس الماء من النار والنور من الظلام .

واعتراك الشك في امر الجماجم التى وجدوها سنة ١٩٠٣
في مغارات البوسنة وحكموا عليها بانها الانسان الاول
بمجرد ان بروز الذقن فيها اكثر قليلاً مما هو في القرود الشبيهة
به واحتمالات ان تكون جماجم قرود اوجبت تقلبات الخارجية
بروز اذقانها او جماجم انسان اوجبت تلك خفائها ولا اخشى
عليك من هذا الاحتمال الا ان تجريه في غير المقام وحينئذ
يطول اسفك على علم الاحافير برمته .

ثم من اين يعلم ان تلك العظام ليست من صنع ايدى
المزورين الذين لايزالون في اوروبا يحتالون على علماء
الاثار القديمة والبالنتوجيين وارباب المتاحف ويأخذون منهم

امو الأعظمية .

(عده تزويرات اروبية)

ومنذ عهد قريب اشترى متحف اللوفر تاجاً قيل انه تاج
الملك (سينافارنس) وانه احتفر من جنوبي روسيا واعطى
في ثمنه اربعة آلاف جنية ثم ثبت انه مزور وقد صاغ اكثره
احد (صائغي) اودسا وكان لهذا الاكتشاف شأن كبير
اوقع الريب في كثير من التحف التي في اللوفر وغيره
من المتاحف اترى المزورين لايعلمون ان اهتمام العلماء
باصل الانسان اعظم من اهتمامهم بتاج ملك ام تغيير صورة
العظم امر غير مقدور لهم .

ومن طريف ما نقل من هذه التزويرات ان احد اساتيد
مدرسة (ورتنبرج) يقال له (برنجر) كان يعلم تلامذته
ان المحجرات تكونت من العاب الطبيعه فقال بعض
تلامذته اذا كانت الطبيعة تستطيع ان تصنع حجارة مثل
هذه فعلى م لانصنع نحن امثالها فاتوا بحجارة يسهل نحتها
وصنعوا منها دمى مختلفة الاشكال وطمروها حيث ينقب
معلمهم الاحافير فعثر عليها واحلها محلاً رفيعاً ولما رأى تلامذته
ذلك اكثروا من عملها فزادوه اعجاباً ولما صار عنده قدر كبير

منها صورها وطبعها في كتاب كبير وما انتشر هذا الكتاب
حتى اشتهر امر تزوير التلامذة واصطناعهم لما وصف في الكتاب
فلقى مؤلفه من الاستهزاء والازدراء قدر ما كان ينتظر من
الاحترام والتعظيم فجعل يشترى النسخ التي باعها ويحرقها
حتى اتى على اكثرها وكان كلما قلت النسخ غلا ثمنها فانفق
المسكين كلما ما كان يملكه ومات فقيراً منصدع الفؤاد
ويقال ان هذا الكتاب افاد البلينتولوجين (علماء الحفريات)
فائدة لاتقدر حتى لاينخدعوا بمثل هذه الاخاديع . قلت ولا
تنحصر الفائدة بعلماء الحفريات بل تنفع في علوم كثيرة
من علوم هؤلاء . ولكن لو كان الانخداع امراً اختيارياً
او الخادع كان يراقب الله فيجعل على مزوراته وسماً ظاهراً .
وتزوير (شابير) اليهودى للخزفيات الموابية وحكم
(شلوتمان) العالم الالماني الشهير بصحتها واقناعه رجال
الدولة بادلة كثيرة حتى اشتروها وخسروا خزانة
الامبراطور سبعين الف فرنكاً مما اشتهر وذاع وقد نال
(كلومون غانر) الفرنساوى من الاذى والشتم لانكار
تلك الصور ما كاد يقضى عليه لولا مصادفة اتفاقية افتضح
بها (شابير) (ومن لهم بان تكون تلك المصادفة دائمة)

وقدزور (شابير) هذا ثانياً سفر تثنيه الاشتراع مع الوصايا
العشر وادعى انه وجدها في كهف من كهوف فلسطين
(ولعل مساحه ذلك الكهف كانت تقرب من مساحه
مغارةبوسنه المتقدمه)واتعب علماء الاثار القديمه زماناً
طويلاً حتى ظهر تزويره فمضى وشنق نفسه ولعمرى ان
كان هذااليهودى ادركه نكدالحظ وقضى عليه سوء
الطالع فان ظهر المصادفات كذبه ففي قوم من اخوانه ومن
غيرهم كفايه . وقد عرفت اناساً لهم ثروةوافرة ولابضاعه
لهم الامتاعه دمى مختلفه الاشكال وضرب قطع من البرنز
والنحاس بما يشبه سكةالنقود ثم يبيعونهاعلى هؤلاء
باثمان باهضةلتزان بهامتاحف الدول المتمدنه وموزاتهاالعظيمه
ويستفاد منها تاريخ فنيقية واشور وسلاطين بابل القدماء .
فكانهم لما جلبوا ثروةالشرق الى بلادهم ببضائعهم الحسنة
اراد الله تعالى ان يعاد بعضها اليهم بهذه الاشياء الخسيسة .

وهذه التزويرات التى سمعت نموذجاً منها هى المبانى
لكثير من مسائل العلوم الاختباريه تلك العلوم التى يهدد
الدين بها ويخشي عليه (كما يزعمون) منها واملك تستبعد
بعدانخداع الغربيين وتنظر اليهم بمكبرة العجب فتراهم

اكبر من ان يقعوا في حبائل المحتالين . وتغفل من ان الغرب
اخ الشرق والناس جميعاً بنى اب وام . ولكن للاقدار حكم
وللحظ تحكم . ولطالما انخدع هؤلاء الاذكياء بما لاينخدع
به الغفل البسطاء . والقصص المنقولة في ذلك كثيرة واني شفقة
عليك من الملالة اقتصر منها على حديث زيارة ملك (سدانج)
للعاصمة الفرانسويه وعبثه بعقول قوم من تلك الامة الراقية .

(ملك سدانج وزيارته باريس)

اعلنت صحيفة (الماتن) وصحيفة (التى جورنال) منذ
بضع سنوات ان جلالة مارى الاول ملك (سدانج) عزم
على زيارة باريس وان (سدانج) جزيرة شرقى بلاد الصين
حفظ ملكها استقلاله وسيلقى مزيد الحفاوة في عاصمة الامة
الفرنسويه ثم اقبل جلالته الى مدينة باريس ومعه حاشية كبيرة
من الوزراء والخدم والحشم ونزل احد فنادقها الشهيرة . وبعد ايام
اخذت الرسائل ترد عليه من بلاده وعليها طوابع غريبة
الشكل والنقش فاهتم بها جامعوا طوابع البريد ورشوا
خدم الفندق ليجمعوها لهم فارتفع ثمنها حالاً من انتقالها من
واحد الى اخر وصار الطابع يباع بالف فرنك وذكر ذلك
فى جرائد باريس . وانتشر امره في البلاد فجمل جامعوا الطوابع

في كل انحاء فرانسا يطلبونها بكل مرتخص وغال وطاب رجل من كبار الجامعين مقابلة الملك فقابله بالاحتفاء ولما خرج قابله احد الوزراء وقال انه يمكننا ان نحصر بيع طوابعه ! بك اذا دفعت اليه مبلغاً كافياً من المال فرضي الرجل بذلك وتم الاتفاق بينهما على المبلغ المزبور فدفعه اليه . ثم اسر الوزير في اذنه قائلاً ان عندي مجموعاً كاملاً فيه من كل طوابع بلادي احضرته معي سراً وانا ارضى ببيعه على شرط ان لايدري مولاي بذلك والا ضرب عنقي فابتاعه الرجل ايضاً بمبلغ طائل من المال . وكثرت طوابع (سدانج) بين ايدي الناس وتدفقت منها الاموال الى خزانة مالكها ثم كتب احد اولاد المدارس الى احد الجرائد يسئلها اين موقع (سدانج) فانه لم يجدها في الخرايط ولا في الكتب الجغرافية. فاتضح حينئذٍ ان البلاد غير موجودة وان الامر كله تزوير في تزوير من اوله الى اخره فوقف الناس حيارى يضحك بعضهم على بعض . امة ملئت الارض علماً وخبراً . ودوختها براً وبحراً . وصنعت لها خرائط تريك ما بين سمعها وبصرها واستعمرت من مجاهلها مالم يصل الى الاقدمين خبرها ثم انخدعت بتلك مزور لمملكة موهومة على سطحها افلا تنخدع

بعظام توجد في سفلى طبقاتها .

(الخامس) ما ذكره (متشينكوف) خليفة باستور المتقدم ذكره . وهو ان في عواطفنا ومشاعرنا ما يدل على اصلنا (اصله) الحيوانى مثاله وقوف الشعر وقت الخوف فنحن والحيوان سواء في هذه الصفة وقد كانت تفيدنا ونحن في الدور الحيوانى اذ كانت تعطى الخائف هيبة ربما تغلب بها على مهاجمه .

واذا قام هذا وامثاله من الحدسيات الباردة والخيالات الفاسدة مقام الادلة العلمية فالاجدر بالانسان ان يجعل الاعراض جواباً والسكوت خطاباً ثم يشكر الله على العافية وان كان لابد من الجواب فالاولى ارجائه الى ان يبين لنا هذا الرجل فوائد سائر عوارض الخوف في الدور الحيوانى من صفرة الوجه وارتعاد الفرائص وتمتمة اللسان ثم نقول ان احدكم وهو (اسبرن) استاذ جامعة (كولمبيا) في (نيويورك) نقل في خطبة له حشوها اطراء هذه الآراء والوقيعة في الاديان ان بعض ائمة الدين كان يحذرنا ويقول: دعوا مسائل الارض والجو والعناصر للعقل لئلا يرى رجال

العلم سخافة ارآئكم فيها فيهزؤا بكم . وقـد آن ان
نقول الا عاقل من اهل هذه الاراء يحذرهم قائلًا دعوا
مسئلة اصل الانسان للدين لئلا يرى رجاله سخافة ارآئكم
فيهزؤا بكم .

هذا وبقى من الوجوه التي ذكروها لاصل الانسان الطفها
واطرفها وهو ما يريد ان يفعله (موانس) وما ادراك من
(موانس) استاذ علم الحيوان والنبات سابقًا في نادى التعليم
العالى في هولاندا وقدنال مرتبة سامية بهذه الفلسفة حيث
حكى نفسه قائلًا (كنا نظن انه مضى الوقت الذى فيه
يعترض على مذهب النشو القائل بان الانسان صورة مرتقية
عن ادنى منها رتبة من ذوات الثدى التي القرد منها ولكن
خاب ظننا لان تعاليمى وارائى اثارت علي سخط الجمهور
وقد اضطهدت في هولاندا بلادى وضربت واحتقرت)
لله البلاد الواطئة ما اعرفها بمقادير علماء هذه الفلسفة العالية
(وقد نال ايضًا في هولانده جايزة لكشفه هـذه الحقيقة
التي خدم بها الانسانية) .

وقد حكى عن نفسه ذلك وقال – ولما نشرت رسالتى
المعنونة بابحاث وتجارب عن اصل الانسان ثارت عـلي

عواصف السخط وتطاول على اسقف او تزخت ولكمنى
على رأسي –

هذا الفيلسوف عازم على فصل المسئلة قريبًا وقـد شمر
لذلك عن ساعد لا تثنيه الملمات وذلك انه نشر مقالة في
جريدة الماتين الفرنساوية ذكر فيها بعض الادلة المتقدمة
على نشو الانسان (وقال بعدها) واذا كانت هـذه الادلة
لا تكفى للاقناع فالتنقيب في الآثار المتوسطة بين الانسان
والقرد متواصل الا انه عمل طويل كثير النفقة ولسوء الحظ
يتوقف النجاح فيه على الصدفة . على انى للاسراع بحل
قضية من اهم رغائب اهل العلم حلها عزمت على السفر الى
بلاد الكونغو حيث اجرب الحصول على نتاج من الانسان
والقرود الشبيهة به لانه قد يكون شبيهًا بالكائنات المتوسطة
المفقودة التي هى اجدادنا (اجداده) الاول .

ما كنا نرضى لهذا الاستاذ بهذه الخطة الدنية والسير على
خلاف ناموس الارتقاء وان يصبح مشغولًا بالحرفة المذمومة
للقرود في كونغو بعد ما كان مدرسًا للجامعة الكلية في
هولانده . على انه يتجشم السفر البعيد ويصبغ البشرية
بعار جديد والنتاج المذكور ان حصل فلا ينتج ما يروم

ولا يحل به هذه القضية التى زعم انها من اهم رغائب العلم
ولا يضر القائلين بابتداع خلق الانسان اذا تولد بين الانسان
والحيوان مخلوق متوسط بينهما فانه لا يدل على ان الانسان
كان اصله كذلك . ولا تنفع القائلين بنشو الانسان لان
تلك الكائنات المتوسطة لو كانت موجودة وكان من المعلوم
انها هى اجدادهم الاول . كانوا في غنى من هذه الصور
المتولدة وان كانت مفقودة كما هو مفروضه فمن اين يعلم
انها تشبهه وان اراد ان يتم بهذه التجربة الاستدلال المتقدم
ويعرف بمشابهة جماجها مع الجماجم المكتشفة انها كانت
لحيوانات بين الانسان والحيوان فلا يتم الدليل ايضاً على
انها اصل الانسان بل يدل على وجود متولد بينه وبين الحيوان
فلعل في سالف الزمان وجد غيور محافظ على شرف الانسانية
(كموانس) اشتغل بهذه السلعة بين الانسان والقرود فولدت
بينهما ارباب تلك الجماجم .

على ان جميع ذلك لا ينطبق على ما عرفت انه المحقق
من مذهب (دارون) من كون الانسان فرعاً مستقلاً عن
القرود ولكن بجمعه والقرد اصل واحد فضلاً عن كونه
متولداً بين الانسان الدانى والقرد . واين الاجداد الاول

وهم في ابتداء سلسلة التحول عن الانسان والقرد الحاليين
الذين كل منهما منتهي تحولات طويلة كما سمعته من (بختر)
وبالجملة لا يتم بتجاربه ان تمت شيء من رغائب اهل العلم
ومن العجيب ما قرأناه في بعض المجلات العلمية من ان
علماء الطبيعة منتظرون نتيجة تجارب هذا الفيلسوف بفروغ
صبر . وليت شعرى ماذا ينتظرون واين يقع مما يريدون
لو فرض تولد مخلوق بين الانسان والقرد يشبههما معاً .
نعم هذا الاستاذ ان فاته الفخر بحل مسئلة اصل الانسان
فلا يفوته فخر الاختراع لفن جديد لم يسبقه احد من اول
الدهر الى الآن وسوف تبقى له يد عند القرود لابد ان
تشكرها في دولتها التى اخبر (مسيو دوبى) بقيامها في
مستقبل الزمان .

وللقوم مسلك طريف في العمليات وهو تهديد خصومهم
بتكميل العلم في المستقبل وان الاكتشافات الآتية
سوف ترفع كل شبهة تقع في اصل الانسان وهذا كثير في
كلامهم وهذا مما نعترف بالعجز عن جوابه اذ كيف نجيب
عن دليل لم نعرفه الى الآن ولكن نقول نحن للحال
وللمستقبل رجال ونقول ايضاً لو زادوا عشرين على ما عدوه

للارض من الطبقات وبلغوا مركز الارض في الحفريات.
وملأوا معارض اروپا بالعظام البالية وادعوا انها بقايا حيوانات
عاشت في الاعصر الخالية . فلا يجدون شيئاً يوجب الوهم
في تحول الانسان ولا طريقاً الى معرفة اصله الا الاذعان بما
اخبر به الدين وهو ان ابا البشر جميعاً انسان مخلوق من
الطين .

(فصل) علم اهل هذه (الطوتمه) ان النفوس المرة
والطباع الحرة تأبى هذه النسبة الدنية وتربأ بشرف
الانسانية عن دنائة البهيمية . وتشح بذروة مجدها عن
حضيض هذا الانتساب وتحمي ثغر حقيقتها الناصعة عن القرود
والكلاب . ولا ترضى عن اب ابدع الله خلقه ليكون
خليفته في ارضه ثم اسجد له ملائكة السموات باحناش
وحشرات وبهائم تتسلق الاشجار في الغابات فنصبوا من
حيلهم لعقول الضعفاء حبائل واطالوا في ستر هذه الشناعة
ولكن لم يأتوا بطائل ولا ثمرة في نقلها الا اذاعة اللغو
واضاعة الوقت ولكن نسمعك منها اعتذار ادمج فيه
صاحبه شكاية من خصوم هذا المذهب فقال ماملخصه :
ان الكيفية التي يذكره بها دائماً خصومه من ان القرد اصل

الانسان لا يمكن ان يحدث في سامعها الا نفوراً وهو سلاح
يفتريه خصوم هذا المذهب لتحقيره . والا فمذهب (دارون)
لا يقول ان القرد اصل الانسان بل الانسان والقرد والفرس
وساير الاحياء من اصل واحد الخ .

فان كنت اعزك الله ممن سمع (بالاعتذار من الذنب بما
هو اقبح منه) فاعلم بانك لا تجد له مثالاً احسن مما جاء
به هذا المعتذر . لان الذى تنفر عنه الطباع السليمة وتأباه
النفوس الكريمة هو الانتساب الى مطلق الحيوان لا لخصوص
القرد ما بين انواعها . وهذا المذهب وان كان لا يقول باشتقاق
الانسان من القرد ولكنه يجعله عن اصل هو احط من القرد
بكثير ولا تقف فلسفته بالانسان عند هذا فقط بل ينزل
به الى الاحط منه فالاحط ولو انصف هذا المعتذر لعلم ان
هؤلاء الخصوم لم يسيئوا الى هذا المذهب بل احسنوا اليه
ولترك الشكاية منهم وشكرهم عليه .

(واقول ايضاً) هب انه لا عار في النسبة الى الحيوان كما
يقول (لانج) في كتاب تاريخ الرأى المادى لا يليق
بالفيلسوف ان يحمر خجلاً كما فعل (بلينوس) من حقارة
اصلنا الخ . افهل فيه مجد وافتخار حتى يحسن ان يقول

الانسان (اخوتنا القرود) او يقول لو استتب للقرد نفس
الاحوال التى نشأ في وسطها اخوه الانسان لتزاحمنا في تقدم
العمران .

(المقالة الثالثة)

وقدآن ان ننظر الى هذه الاراء من الجهة العلمية والحقيقة
ضالتنا التي ننشدها ونأخذ بها حيث نجدها توافق (دارون)
فيما ظهر لنا انه الحق من آرائه ولا نستنكف من اتباعه
ونخالفه فيما خالف الحق فيه ولا يهولنا كثرة اتباعه . لسنا
من اعدائه فنعادى الحقائق ونرفض كل ماقال وشرطنا على
تابعيه الانصاف ولهم ذلك علينا والموازين العلمية هى
الحاكمة بيننا وليس القصد في هذه الرسالة بيان جميع ماقيل
في هذه الاراء او يقال . ولا استقصاء مالهم من مختلفات
الاقوال وانما القصد النظر فى الامور الجوهرية التى يتركب
منها الرأى الدرويني وهي النشو والارتقاء وتعليلها بالانتخاب
الطبيعى ثم البحث فى الغرض الذى اوجب انتحال المعطلين
لهذا الرأى واعجابهم به وتأليف الكتب والمقالات فيه
اعنى الاستغناء به عن الصانع الحكيم واقامة الانتخاب
الطبيعى مقام الخالق القديم جلت الائه ايكون كالمدخل

للقسم الثانى منها انشاء الله .

ونعتمد فيها على مارتبه (بختر) شارح مذهب (دارون)
فانه ابسط كتاب عثرنا عليه في هذه الاراء وعنده ان هذا
المذهب ينقسم الى اربع مسائل جوهرية وان لم يقسمه
(دارون) كذلك ودرسه على هذه الصورة يسهل فهمه
جداً وهى . (١) تنازع البقاء (٢) تكون التباينات او
تغير الافراد (٣) انتقال هذه التغيرات الى النسل بالوراثة
(٤) انتخاب الطبيعة للمتغير من هذه الافراد الذي يكون
فيه بعض افضلية وهذا الانتخاب يحصل بواسطة الانتخاب
الطبيعى فهذه العوامل اذا اجتمعت وفعلت معا فنتيجتها
التى هى استمرار تحويل الاحياء في الطبيعة تكون كانها
ذاتية .

هذا المعطل يرى جميع الكون وهذا النظام الاتم نتيجة
الصدفة الصماء وينكر البديهيات الثلاث اعنى (المقصد)
(والنظام الاتم) (والغاية في خلق الاشياء) ويريد ان يقيم
هذه العوامل الاربع مقام القدرة الالهية ويجعلها هي الموجدة
لايدى ذوات الاربع واجنحة الطيور ومخالب السباع

و... ويستغنى بها عن الصانع الحكيم فلننظر فيما ذكره
في شرح هذه الامور وتنتظر ترتب هذا النظام البديع
عليها ونرى كيف يوجد من الجسم ذى خلية واحدة هذه
الاعضاء النافعة المختلفة اشكالاً وانواعاً لمختلفات صنوف
الاحياء كل بحسب احتياجه ولازمه في معيشته من غير قصد
واختيار (قال) واول هذه العوامل واهمها تنازع البقاء
وملخص المهم مما ذكر فيه امور

(ا) جميع افراد النبات والحيوان ميالة للتكاثر الى ما
يقل منه الغذاء وتضيق عنه الارض

(ب) هذه الكثرة في النتاج تعترضها اسباب كثيرة منها
مزاحمة الافراد بعضها لبعض من جهة اخري وهذا تنازع
البقاء .

(ح) التنازع على حالين فاعلى ومفعولى ويريد بالاول
ما كان بين الاحياء بعضها مع بعض وبالثاني ما كان بينها
وبين قوى الطبيعة الصامتة

(د) الفائز من الافراد والانواع في ميدان تنازع البقاء
هو ماتميز منها بصفات جسدية اوعقلية تحقق له هذا الفوز .

(ه) هذه الصفات كثيرة جداً فقد تكون الاقدام .

اوالقوة او كبر القد) (اوصغره) (اووسايط الهجوم والدفاع)
(اواللون) (اوالجمال) (اوالسرعة) (اوالصبر على الجوع)
(اوحسن الكساء) (اوالحيلة) (اوحسن التدبير في
استحصال القوت) (اوالحكمة في اتقاء الشر) الخ

ولعموم النوع هى كثرة النتاج (وان كان فعل الكثرة
محدوداً جداً) وللنبات موافقة التربة اوقوة يقوى بها على
المؤثرات الخارجية المضرة

(و) التنازع يبلغ معظمه بين الانواع الاقرب بعضها عن
بعض حتى يفقده

(ز) كلما كانت الصورة قديمة كانت اضعف عن مقاومة
خصومها الاحداث في التنازع صوراً انسب للتغييرات
الحاصلة في احوال الحيوة

(ح) كل صورة غلبت لاتعود ابداً اذلا تعود قادرة
على الثبات في التنازع (انتهى)

وحيث ان تنازع البقاء اهم العوامل في هذا المذهب
كما قال (بخنر) فلا غرو اذا سمح لنا القارى الكريم بحسن
الاصاخة وسامحنا فيما التجأنا اليه من الاطالة ثم نقول .

لاريب فيما ذكره في الامرين الاولين ولا موضع للتأمل

الا في تسميته مطلق العوارض المانعة عن كثرة النتاج
بتنازع البقاء. لانه بمعناه الاصلي لا يصح تقسيمه الى فاعلي
ومفعولي كما ذكره في الامر الثالث ولا يصح اطلاقه على
جميع الموانع المعترضة دون كثرة النتاج اذ الموانع الطبيعية
التي تحول بين الاحياء وبينها من البراكين النارية والسيول
الجارفة والحر والبرد المفرطين ونحوها تهلك ما صادفت
من الاحياء غير شاعرة بانها لو بقي كلها لضاقت عنها الارض
ولم يكفها ما فيها من الغذاء. وكذلك كثير من الموانع التي
تصدر من الاحياء وهي التي اصطلح عليه بالتنازع الفاعلي
اذ الانسان المتسلط على مملكتي الحيوان والنبات لا يزال
يهلك كثيراً منهما لا لانه ينازعه البقاء بل لاغراض شتى
فيقتل الفيل طمعاً في اسنانه والطاوس للتزيين بريشه وغزال
المسك لما من الطيب في سرته. ويقتل السباع وذوات السموم
لاتقاء شرها وهكذا.. وكذلك يقطع الاشجار ويهلك
اصنافاً من النبات ليستعملها في حاجياته وفضول معيشته.
بل السباع تفترس ما تقدر عليه من الحيوان لا لانها تنازعها
في بقائها بل لتوقف حياتها على هلاكها. ولو زادت مساحة
الارض الى ان تسع الجميع واخصبت حتى تكفي ما فيها

من الغذاء للكل لكانت هذه العوارض تفعل ايضاً. فعلها
وتمنع الاحياء من تكاثرها. وان كان سمي مطلق الموانع
تنازعاً في البقاء وقال هذا امر اصطلحت عليه فلا نشاحه
في هذا الاصطلاح البارد. ولكنه لا يجديه في معظم هذه
الفلسفة لان كثيراً منها يتوقف على تنازع البقاء بالمعنى
الاول. منها ما ذكره في الامر السادس. اذ العوارض الطبيعية
وما يكون بين الاحياء للاغراض التي عرفت نموذجاً منها
لا تفرق بين الانواع القريبة والبعيدة فالسيول العظيمة
تأتي على بيت النمل كما يأتي على نافقاء اليربوع ووجار الذئب
وادحي النعامة وكناس الوحش وعرين الاسد. والسنين
الشهب تهلك الانواع المتباعدة والمتقاربة معاً والانسان
يقصع القمل ويفرك البق ويقتل البعوض لانها تمنعه لذيذ
سباته كما يقتل الاسد والوحيد القرن حذراً من براثنه
اوقرنه. وعليه فقس ساير العوارض فاين قوله التنازع يبلغ
معظمه بين الانواع الاقرب بعضها من بعض لاشتراكها في
المتنازع فيه.

وماهذا المتنازع فيه بهذا المعنى من التنازع حتي يشتركا
فيه. وهل يبقى موقع لقوله ويقل كلما بعد بعضها عن بعض

حتى يفقد وليس هذا بامر هين في فلسفته لانه مجنته الذى
يتستر به من اعظم الاعتراضات عليها كقلة الوسايط بين سلاسل
الاحياء وغيره مما ستعرف . وتعليله الوحيد لسرعة ارتقاء
بعض الانواع ونحوه وعذره في عدم ارتقاء الحيوانات التي هي
بمعزل عن تنازع حيوانات اقوى منها كحيوانات (اوستراليا)
وهولانده الجديدة كما سيذكره الى غير ذلك من المسائل
التى تتوقف على تنازع البقاء بالمعنى الاول . ولا داعي الى
استقصائها بعد ما عرفت اجمالاً وستعرف تفصيلاً من ان
تنازع الاحياء فيما يتوقف عليه حياتها من مقدمات الارتقاء
الذى هو اهم ركنى هذه الاراء

واما ماذكره في الامر الرابع من ان الفوز في ميدان
تنازع البقاء يستتب لمن تميز بصفات جسدية اوعقلية فليس
بصحيح على كليته لان هذه التميزات قد تكون سبباً
للهلاك كما تكون سبباً للفوز فكم من عاقل قاده عقله الى
منيته وقوى وقع في شبك المنون لقوته وسفيه وقته من
المحاذير سفاهته وضعيف تجنب مواقع الهلكة فوفرت
عليه سلامته . وما بلاء الطاوس الا حسن ريشه وما جر
الويلات على السمور الا امتياز جلده والاقدام الذي عده

من اسباب الفوز يكون الاغلب سبباً للهلاك والزوال
والاقدام قتال (١)

وقد رأيته بنفسه كيف عد المتضادين من اسباب الفوز
نحو كبر القد وصغره وكذلك الكوارث الطبيعية كثيراً
ماتجتنب الضعيف وتأتي على القوى بسيط

ان الرياح اذا ما اعصفت قصفت
عيدان نجد ولا يعبأن بالرتم

ثم ان الضعيف كثيراً ما يعتصم بقوة خارجية تعصمه
من العوارض التى تفنى الوفا من الاقوياء كما تبقى الدواجن
والحيوانات الاهلية لقيام اربابها بطعامها في السنة الشهباء
والحيوانات القوية المتميزة تموت سغباً اوتهلك عطشاً لاعوازها
الكلاء والماء ولقد اصاب صلاحه في الاغماض عنه في المقام
لولا انه الم به بعض المام بعد ذلك فقال (ص ٨٥) (ج ل)
ترجمة (بخنر) .

فان في حدائقنا نباتات كثيرة متحملة الاقاليم جيداً ولو
تركت ونفسها خارج الحدائق بعيدة عن اعتناء الانسان لما

(١) جزء من شطر بيت للمتنبي وتمام شطره (الجود يفقر والاقدام قتال)

استطاعت ان تثبت في منازعة اقرانها .

وانت اعزك الله بعد هذا التطويل الممل منه والاسهاب منا هذا الذى التجأنا اليه لم تزدد بهذه المقدمة وان كانت اهم مقدمات هذا المذهب شيئاً على ما كنت تعلم منذ نعومة اظفارك بل بعيد مافارقت وطئ مهدك من ان الاحياء لاتبق لهاعارية الحيوة ابداً وانها ان لم تمت اليوم فسوف تموت غداً وان الحياة مهددة بما لا تحصى من ضروب الخطوب ولا تزال تعبث به حتى يلقى شعوب وانه ربما نجى الحى من المهالك قوة خارجية او نفسية او امتيازات جسدية او عقلية وربما كانت تلك الصفات هى التى توردة حياض المنية . هذا حق ولكن اين يقع مما يرومه هؤلاء . واين هذا من ان يكون سبباً للتحول والارتقاء .

(نظرة اخرى الى تنازع البقاء وبحث آخر فيه)

سمعت من نخبر عده تنازع البقاء من العوامل التى تحول الاحياء وسوف تسمع منه ومن غيره انه السبب في الارتقاء وانه العرش الذى يتبوأه الانتخابات الطبيعي الموجد للانواع . فاستمع الان لما نتلوه عليك ونوضحه لك من ان تنازع البقاء وان سلمنا جميع ماادعاه واغمضنا عما

انتقدنا عليه لايعقل ان يكون عاملاً فى تغير الاحياء ولا سببا للارتقاء . ولا دخيلًا في وجود جناح بعوضة ومافوقه .

(بيانه) ان دعوى هولاء ان الصور الكاملة الموجودة آتية عن صورنا قصة بسيطة تحدث لبعضها صفة زائدة بناموس المباينة الاتية وتنتقل تلك الصفة بقانون الوراثة الى نسله وهكذا تحدث صفة في النسل وتنتقل الى نسله وهكذا على ممر الاجيال حتي يتألف نوع جديد فان تم لهم بطريق طبيعي حدوث الزوايد وتم قانون الوراثة ومرور الاجيال عليها وانتخاب الطبيعة الزوائد النافعة دون غيرها تم النشو والارتقاء من غير توقف على تنازع القوى والضعيف بادى بدء وفناء الاضعف وان لم يتم لهم شيء من ذلك لم يكن التنازع ليسدلهم خللاً اويقيم اوداً . مثلا الكرية البسيطة التى يريدون ان يضمها جلاًيزاد فيها خلية وتنقل الى نسلها بقانون الوارثة وفي النسل ايضاً كذلك وتنقل الجميع اذا كانت نافعة الى نسله وهكذا حتى يتم شكل الجمل على ما ستعرف تفصيله . وهذا كما ترى لايتوقف على تنازع البقاء وفناء الاضعف .

ولزيادة التوضيح نفرض وسطاً بعيداً عن جميع انواع
التنازع بمعنييه ونفرض فيه فردين من الحيوان تناسل
احدهما ووجدت في نسله زيادة نافعة فانتقلت الى نسله بقانون
الوارثة ووجدت في النسل زيادة اخرى كذلك واورثها نسله
وهكذا تزداد الزيادات وتجتمع في الاخلاف حتى تبدوا
في اى صورة تفرض ويتم التحويل من غير توقف على فناء
الاخر بل لوفرض ان الفرد الاخر تناسل مثل الاول وحدثت
في النسل زيادة اورثها عقبة وهكذا لارتقى الفرد الاخر
وتحول من غير ان يضر بترقى الاول وتحوله وكذلك لوفرضنا
وسطا ليس فيه الا فرد واحد فانه بمساعدة اوضاعه والنواميس
المذكورة يتحول الى صورة اخرى مع عدم المنازع له فى
البقاء اصلاً فاتضح ان تنازع البقاء لايعقل ان يكون دخيلاً
في النشو والارتقاء نعم يصلح ان يكون عذراً لفقدان الصور
المتوسطه فيقال انها فنيت لان ضيق الارض وعدم كفايه
الغذاء شكلا ميدان تنازع الافراد فهلك الضعيف وبقي
القوى والف نوعاً جديداً . ولا يحضرني كتب (دارون)
لاتجاسر على القول بانه ذكر تنازع البقاء عذراً لفقدان
الصور المتوسطه فاشتبه الامر على اتباعه فجعلوه من مقدمات

النشو ولكن المثال الذى نقله عنه الشارح في طول عنق
الزرافه يناسب ماذكرناه وهاك مانقله بنصه . الزرافه
الحالية اتية من اصل اصغر منها وهذا الاصل قد انقرض منذ
زمن طويل ولم يكن عنقها في الاصل طويلاً كما هو اليوم
ولا باقي اعضائها كذلك (بناء على ان الاعضاء متناسبة في
الجسم الحى) وبقيت على هذه الحالة زماناً ربما كان مائة سنة
او الف سنة او اكثر او اقل بدون تغير جوهري فيها لعدم
تغير احوال حياتها حتى حصل يبس شديد ماتت به كل
الاشجار الا اشدها اي اعلاها فماتت كل الزرافات الصغيرة
التى فى عنقها قصر يحول بينها وبين الحصول على قوتها وبقيت
الكبيرة الطويلة الاعناق وانتقل ذلك في نسلها الى اولادها
وبقيت هكذا حتى اصابها ايضاً ما اصابها فى المرة الاولى
فماتت قصارها وبقيت طوالها وهكذا ومازال هذا الامر
يتكرر فيها حتى بلغ بها في الادوار الطويلة والاجيال
العديدة الى ماهي عليه اليوم .

ولا ينبغي لمثل (دراون) ان يخفي عليه ان موت قصار
الاعناق منها لايعقل ان يكون سبباً لطول اعناق طوال
الاعناق . بحيث لوفرض ان القصار الاعناق لم تمت من الجوع

بقوة طبيعية مجهولة (اوبقوة فوق قوي الطبيعة) لما طالت
اعناق البواقي ومن البديهي ان بقاء تلك الحيوانات الصغيرة
وهى طاوية عـلى الجوع احشائها وصابرة على طول بلائها
لاتمنع نسل الكبار من ان ترث طول العنق من اجدادها وهكذا
الى ان يبلغ عنق الزرافة الى ماهو عليه اليوم من الطول نعم
لازم ذلك ان توجـد اسراب كـثيرة منها مختلفـة
الاعناق اختلافاً فاحشاً ويفرض هـذه الازمات الشديدة
المتوالية يمكن تعليل عـدم وجودها ويشهد لمـا قلناه
ما سيأتي نقله من الشارح من ان (دارون) انما توصل الى
الانتخاب الطبيعي بدرسه علم تحسين الحيوانات والنباتات
وان الفرق الوحيد بين عمل الانسان والطبيعة ان الانسان
يعمـل عن علم بالشيء ولذلك يتم عمله في زمن قصير الخ
ومن المعلوم ان مبنى علم التحسين كما سيذكره على الاعتناء
بتربية الفرد الذى فيه صفات مطلوبة ثم انتخاب فرد من
نسله توجد فيه تلك الصفات اكثر من غيره وتربيته ايضاً
وهكذا ولايتوقف على اتلاف بقية الافراد من النسـل
قطعاً بل يحصل بالتربية ارتقاء الفرد المعتنى بشـأنه عاشت
بقية الافراد او تلاشت .

﴿ القول في تكون التباينات ﴾

قال فيه تكون التباينات مبنى على القاعدة المتحصلة
بالاختيار والتى وضعها (دارون) وهى ان الاجسام الحية
ميالة الى التغير على اوجه مختلفة والى حد محدود اى انهـا
تنحرف عن الاصل الصادرة عنه ببعض الصفات الخصوصية
اما في النتيجة . (اواللون) (اوالكساء) (اوالقـد)
(اوالقوة) (او تكوين بعض الاعضاء) ولا يجتمع اثنان
على كثرة الاجسام العضوية على شبه واحد حتى ولا ورقتان
على شجرة واحدة فالتحول الى حد محدود هو اذا ناموس
عام يطلق على جميع الاحياء . ولا يقال ان الحى يلد حياً
نظيره ولا يصح ان يقال ايضاً انه يلد حياً مختلفاً عنه لأن
الوراثة ليست راسخة كما هى غير مختلفة . والصحيح ان
يقال كل حى يلد شبيهاً به وعلى هذه القاعدة يشبه الابن
ابويه بالصفات الجوهرية ولا يشبههما ابداً بكل الصفات
(يقال) من دأب هؤلاء الفلاسـفة تعليـل الموجودات
بالصحيح والمعتل والرطب والجزل والتكاف فيما لايعرف
وجهه ولو بضرب من المحال او بعبارة مقعرة لا تزيد الا
اجمالاً على اجمال كل ذلك حذراً على حمى التعطيل من الارادة

الالهية . ونشفقة على ظلمات المادة من ان تقشعها انوار القدرة
الربانية فما بالهم قنعوا في هذين الناموسين المظيمين وهما
عمدتا هذه الآراء . ببيان امرين بديهيين وهما ان مكن الضب
لا تنفلق عن نعامة والفرس لا تلد كلباً ولا هرة بل تلد
حيواناً يشبهها ولكن لا الى حد لا يتمكن صاحبها من الفرق
بينه وبينها . هذا عجيب ونسبة وضعها الى (دارون) اعجب
وانما كان الجدير لهم ان يبينوا علة المشابهة والسبب الذى
يفضى الى المباينة لتخرج القضيتان من صف البديهيات
التى تستنكف العوام من التكلم عليها الى عداد القضايا
التى يحق لاهل العلم النظر فيها . على ان من الواجب عليهم
في صناعة العلم ان يبرهنوا على ان التباينات لا تحد بحد
او ان له حداً وراء الانواع التى يشتق بعضها من بعض .
والاّ فالخصم لا يلجأه الوجدان وحكم البداهة الى الاعتراف
بازيد من تغييرات عارضية طفيفة وانه ربما اشتدت تلك
العوارض او ضعفت اذا انتقلت الى الاعقاب بالوراثة ومرت
عليه ازمنة طويلة فيكون آخر اعقاب الرجل الابيض اشد
بياضاً بكثير من اجداده الاول او يكون اقصر من جده
الاول او اطول ومثلهما الامثلة التى ذكرها عدا المثال الاخير

وهو تكوين بعض الاعضاء فانه مما لا يعترف الخصم به
والانصاف يحكم بالفرق الواضح بينه وبين ما تقدم من الامثلة
اذ هى من الصفات العارضية والاخير على مذهب خصمه
من الامور الجوهرية فدسه ما بين تلك الامثلة شبه احتيال
ينبغى ان تبرأ عنه ساحة المسئلة العلمية . وبالجملة ليس من
الانصاف الذى يسرى اهل العلم على خطته ان يؤخذ الخصم
بازيد من اعترافه فاذا اقر بان نسل السمين قد يكون هزيلاً
ونسل الطويل قد يكون قصيراً لا يصاغ اله من السمك
انساناً ومن الحشرة بعيراً نعم لو تأتى لهم بيان عدم الفرق
بين الصفات العارضية والجوهرية بحسب المعنى او تمكنوا
من اقامة الدليل على ان التباينات يسرى الى الامور
الجوهرية تم لهم امكان تأليف الانواع من التباينات
الواضحة الثابتة وقد تنبه الشارح لذلك فقال (ولا يسع
خصوم (دارون) ان ينكروا ميل الاحياء الى الاختلاف
وتكون التباينات الاّ انهم يزعمون انه لا يتناول الاّ
الاعراض فقط كاللون والجلد والقد وغير ذلك ولا يصل الى
جوهر التكوين . وقد بين (دارون) بطلان زعمهم هذا
واثبت ان الميل المذكور يصل الى الجوهر قال ان الفرق

بين النوع والتباين يمتنع علمياً تبينه والاختلاف
بين العلماء من هذا القبيل كثير وليس لهم فيه تعريف
مقبول والذي اوقعهم في هذا الارتباك اعتبارهم
النتاج حداً يفصل (انتهى). (ونقول في جوابه) ان
اثبات الانواع من مسائل الحكمة العالية ولايتأتى بطرق
العلوم الطبيعية فذكر الدليل عليه خارج عن المقصود من
هذه الرسالة ومن شاء فليطلبه من مواضعه . بيدانانقول
ان مجرد انكار الانواع لايكفيه في اقناع خصومه ما لم
يثبت ببرهان عدم الحد للتباينات واقعاً او ان حدها ماوراء
جميع مايدعى تحول بعضها عن بعض . وسيأتي ان (دارون)
توصل الى آرائه بدرسه علم التحسين الصناعي للحيوان
والنبات كما قال الشارح ونقل عنه الاعتراف بان الانسان
قدبلغ الغاية القصوى فيه . فاقصى ماوصلوا اليه الان واعظم
مايأملون البلوغ اليه في مستقبل الزمان يلتزم الخصم به في
فعل الطبيعة التي لا تفعل عن علم ولا لياقة ولا لمصلحة
نفسها كما ستسمعه منه .

على ان (دارون) قال بالانواع اوكاد حيث نقل عنه
الشارح ان للانواع تباينات واضحة ثابتة فهو لايخالف

المثبتين للنوع في المعنى لكنه يسمى الجنس تشابهاً والفصل
تبايناً واضحاً ثابتاً وعليه لايتعدى تسليم الخصم هذا الحد
بل يلتزم بحدوث التباينات مالم ينتهى الى التباينات
الواضحة التي هي ثابتة باعترافه .

(الوراثة)

ثم ذكر ان ميل الاحياء الى التغير لا قيمة له في مذهب
(دارون) الا بالوراثة التي تنقل الصفات المميزة للانواع
في النسل وان الوراثة تنقل الامراض كما تنقل عيوب
التكوين مثل زيادة عدد الاصابع او الاظفار ومثل الجهر
وتشقق الجلد ولادية كانت كما تقدم اوعارضة كالعيوب
الحاصلة عن آفات طارئة وكما انها تنقل الصفات الجسدية
تنقل الصفات الادبية كذلك ايضاً كالشهوات والاميال
والعوائد والاخلاق والعقل وغير ذلك. ومن عجيب امرها
انها كثيراً ماتقطع الاجيال كامنة وتظهر في الاولاد بعد
ذلك وهذا الامر يسمى عندهم (الاتافيزم) ومعناه
الرجوع الى الجد. ثم بعد كلام في الانتقال الوراثي كان
معروفاً قبل (دارون) ونقل ما يتعلق به (قال) فالانسان

و كل مايملكه ليس الا نتيجة عمل شاق وبطي لم يفتر
ابداً على مر الدهور الطويلة وقائم على انتقال الصفات في
الاجيال العديدة بالوراثة سواء كانت هذه الصفات حسية
او معنوية ولادية او مكتسبة ليس الا فالوراثة مهمة جداً
في مذهب انتقال الانواع قال (دارون) في هذا المعنى
مانصه (اذا كان من المقرر ان الاختلافات حتى اكثرها
شذوذاً والتي لاينطبق على جنس معلوم كنقص بعض
الاصابع والاظفار او زيادتها وكالجهر وتشقق الجلد وغيرها
تنتقل في النسل بحرص فكم بالحرى ينبغي ان يكون
كذلك في الاختلافات العادية التي يصح عليها جلياً ناموس
الوراثة الشامل لكل الصفات الفردية) على انه يقر بان
نواميس الوراثة الخاصة لاتزال مجهولة كلياً وعلى المستقبل
ان يرفع الحجاب عن مكنوناتها

يقال في المقام لاشك في قيمة الوراثة في هذه الاراء كما
انه لاريب في قدم معروفيته بين كثير من طوائف البشر
من عهد متوغل في القدم وتجد ذكره شائعاً في المنظوم
والمنثور من كلام العرب والفرس وغيرهما كما يقول الشارح
(فكان اذا ذكر شيئاً منها يذكر على سبيل الغرابة) ولكنها

من الامور الغير المطردة الكثيرة الخلف جداً وربما كان
تخلفها اكثر بكثير فانك لا تري خمسة يشبهون ابائهم الا
ورأيت خمسين لايشابهونهم ولاترى عشرة يقاربون ابويهم
في الطول والقصر او الهزال والسمن اوالدمامة والجمال او
غير ذلك الا ورأيت مأته يخالفونهما فيها ولعل الخلف في
الصفات والعادات ابين وعدم اطراد الوراثة فيها اظهر .
وانت اذا نظرت الى عشرة اخوة اعيان ورأيت مايقع بينهم
من عدم المشابهة ظهر لك بالعيان ان الوراثة وان كانت من
الحقائق الثابتة في الجملة لكنها مبالغ فيها عند القوم اقصي
المبالغة على ان المبالغة فيها تضر بهذا المذهب لان من عجيب
امره ان حيوته قائمة بناموسين متضادين المباينة والمشابهة
فان اطرد احدهما في جميع الخصوصيات انتفى الاخر ولم
يتحقق الانواع كما تعلم

وظاهر ان ناموساً غير مطرد كثير الخلف بهذا المقدار لا
يمكن بناء هذا المذهب عليه وان امكن بنائه على العوامل
الضعيفة لان هؤلاء يتداركون ضعفها بتطويل الزمان فلا
يحسون بخلل من هذه الجهة الا وزادوا على عمر الارض
وابتداء الخلق ملائين من السنين وانفقوا عليهما من كنز

الزمان ماشاؤا انفاق من لايخاف النقصان واما العامل الذي لايطرد كهذه فلايمكن جبر كسره ولاسد خلته اذلو فرضت المشابهة بين الاب وابنه في صفة كالطول مثلا فان اطرد ذلك وتسلسل في سلسلة التناسل ونمى بالانتخاب الطبيعى كما يقول (داردون) وهكذا في عدة صفات اخر وبقيت الصفات التى كانت بها المباينة على حالها تألف من الافراد الباقية على طول الزمان نوعاً جديداً وتم له المذهب وان لم يطرد كما هو المشاهد بل وقعت المباينة في نسل الرابع والخامس بما كانت المشابهة فيه فصار الطويل قصيراً لم يتألف نوع جديد وان قدر الزمان باضعاف ماقدروه ولم يجد الانتخاب من النمو مايؤلف به نوعاً جديداً وبقيت الافراد كما كانت تقريباً تأمل جيداً تجد واضحاً ماقلناه انشاء الله . ولك ان تحرر المقام بطريق اخر وتقول لايكفى لهذا المذهب مطلق المشابهة وان سلمنا اطرادها بل لا بد ان تكون في صفات خاصة تسلسل في النسل ليؤلف الافراد بها نوعاً جديداً بعد زمن طويل وهذا لايمكن ادعائه بعد مايكذبه الحس والوجدان بلى اقصى مايمكن دعوى وجود يطلق المشابهة غالباً اوداىٔماً بين المولود والمولود منه واين

يقع ذلك مما يريدون بعد ان تكون المشابهة بين النسل الرابع والثالث بما كانت به المباينة بين الثاني والاول مثلا . وهب ان (دارون) بعد اقراره بمجهولية نواميس الوراثة الخاصة علل نفسه بان المستقبل يرفع الحجاب عن مكنوناتها ونحن لانقطع رجائه بل نحن معه من المنتظرين لكن من اليقين انه ليس من تلك النواميس المجهولة التى سترفع عنها الحجاب بقاء كل مشابهة خاصة مفروضة على تسلسل الاعقاب لتنمو فتتألف منها نوع جديد والالزم ان يكون بين نسلى رجلين وجدا قبل هذا باجيال وكانا مختلفين في الطول والقصر اوالسمن والهزال تفاوتاً بيناً وصفحات التاريخ تذكر لنا اناساً قبل هذا بالف سنة واكثر باوصافهم الخاصة ونرى فقدان تلك الصفة في نسلهم الموجود الان اواختلافهم فيه واما مااختلقوه من حديث (الاتافيسم) فانه لايمكنهم اثبات ان مايحدث في الاعقاب الاخيرة مستنداً للوراثة القديمة اذ من الممكن ان يكون امراً حدث لحدوث سببه كما يقوله (طمسن) في كثير مما عدوه من هذا الباب .

وفذلكة المقام ان ناموس المشابهة وان سلم اطراده فانما

هو مطلق المشابهة بين المولود ومن ولد منه لا المشابهة الخاصة وذلك لا يجدى بعد ان تقع المباينة في بقية الاعقاب بما كان به المشابهة او تقع المشابهة بما كان به المباينة اذاً تنتقض كل مشابة بوقوع المباينة فيها بعينها تأمل المقام فانه دقيق وللمقام تتمة تأتى انشاء الله تعالى

ثم ان ما ذكره من الوراثة في الصفات العارضة ينافي ما نرى في كلام كثير منهم منها ما قرأناه في مقالة عنوانها مسائل العلم في قرن العشرين ذكر كاتبها انه اعتمد فيها على مقالة للاستاذ (دولبر) الاميركى وفيها فقد ثبت ان التغييرات الاكتسابية لا تورث وان الطبيعة لا تحتفظ بسوى التغييرات التى تحدثها هى لاسباب فانها لا تزال تخلق (هكذا عبر) الجبابرة والنوابغ جدداً بالفطارة لا بالاكتساب من الوسط او المحيط .

(الانتخاب الطبيعى)

قال (وقد وصلنا الآن الى آخر قضية من مذهب (دارون) واهمها) وكان اهمها عنده تنازع البقاء (وهى الانتخاب الطبيعى ايضاً) ولا يكون الاّ اذا كان للاختلافات الحاصلة للفرد معنى في تنازع البقاء . فان الاختلافات الفردية تكون

ضرورة على احدى ثلاث حالات . اما نافعة للمنازع . او مضرة له . او لا نافعة ولا مضرة ففى الحالة الاخيرة لا يكون لها معنى فبقائه وعدمه على حد سوى . وكذلك ايضاً اذا كانت مضرة لأن الاختلاف الذي يحصل والحالة هذه تكون نتيجة احد امرين . اما ملاشات الفرد او ملاشات الصفة وتختلف نتيجته اذا كان نافعاً فيمتاز الفرد به على اخوانه وخصومه في تنازع البقاء وينتقل هذا الامتياز الى نسله وينموا فيه على مرور الاجيال وهذا الامتياز في تنازع البقاء لا يحصل الاّ بعد جهد جهيد فلكى يؤلف الفرد به نوعاً جديداً لا يكفى امتيازه به مرةً واحدةً . بل يلزم لذلك احياناً مائة جيل او الف جيل اوعشرة آلاف جيل . وهذا الامر يعتبر جداً في مذهب (دارون) فان الزمان في تاريخ الارض ومتكوناتها له المقام الاولى وانا ليتولانا الذعر اذا افتكرنا في عدد السنين الذى اقتضاه تعاقب الادوار الجيولوجيهٌ فوجودنا بالنظر الى ذلك لا يكاد يحسب لحظهٌ .

اقول هذه القضيهٌ آخر قضيهٌ من مذهب (دارون) كما قال (بخنر) بل هي اقصى ما وصل اليه فكره في تعليل

ما لا تعد من صنوف الاحياء وابعد شأوه فيه واهمها ايضاً
كما قال ولم لا تكون وهى التى تقوم عنـد المعطلة من
اصحابه مقام القدرة الالهية عند المؤمنين . ونحن نعرفك
اولاً بقدرها ونقف بك على حدها ثم نتصدى لنقـدها .
ونقول هي على انها مؤسسة على القضايا السابقة التى عرفت
الكلام عليها . بمعزل من بيان الاسباب التى وجدت بهـا
للاحياء هذه الاعضاء الكاملة التامة الكثير عددها والدقيق
صنعها والمختلفة انواعها واشكالها ومقاديرها الموضـوعة
على اتم ما يكون من الحكمة وتقتضيه المصلحة التى تحير
الالباب وتستوقف دون ادنى مراتبهـا سوابق العقول .
وانما تبين العلة في تمامها والسبب في عدم تلاشيها واضمحلالها
بعد وجودها بل السبب في بقاء من اختص من بين الاحياء
بها وتحيل بك في الغرض الاقصى والامر المهم الى الصدفة
والاتفاق في حدوثها لدى بادى امرها او الى نواميس المباينات
المجهولة كما يسميها فراراً من شناعة لفظ الصدفة . نشدتك
والانصاف اين موقع هذه القضية من المسائل المهمة واين
موضعها من العلم والفلسفة .

ثم نقول ان اول خطأ فيها هو ان كثيراً من اجزاء الحيوان

ان لم يكن اكثرها بمعزل عن تنازع البقاء وغير مرتبطة
به بل هى بين ما يتوقف عليه اصل الحيوة كالقلب واعضاء
التغذية . وبين ما هو لمنافع اخر كالاسنان التى تسهل الاكل
بالقطع والطحن وتعينه على التكلم وتبين له مقاطع الحروف
وغدد اللعاب الذى يرطب الفم ويسهل حركة اللسان ويحل
المواد ذات الطعم وينبه اعصاب الذوق ليلتـذ بالاكل
ويحول الطعام الى كتلة سهلة الازدراد والهضم . وآلات
التناسل التى يبقى به النوع لا الفرد وغير ذلك . وان تكلف
احدهم بعض النفع في بعض هذه الامثلة فان لهـا اضعاف
تأبى هذا التكلف . فلماذا بقيت ولا معنى لها في تنازع البقاء
وهى من القسم الثالث الذى يقول عنه . فبقائه وعدمه على
حد سوى .

وثانياً ان اكثر الاعضاء بل كلها الا ما شـذ حتى التى
لا معنى لها في تنازع البقاء تكون من القسم الثالث في مبدأ
تكوينها وفي اجيال كثيرة بعده . فالاثدى لا تنفع الا
بعد تمام تكوينها وقدرتها على القيام بوظائفها عنـد تحولها
الى صورة مناسبة لها وكذلك غيرها مما لا تحصى من صنوف

اجزاء النبات واعضاء الحيوان .. ومن المقرر لديهم ان
هذه الاجزاء لا توجد كاملة دفعة واحدة عند التحول الى
الانواع المناسبة المحتاجة اليها بل تبدو وتنمو تدريجًا الى
ان تبلغ كمالها وتعود قادرة على اداء وظائفها للانواع المناسبة
لها ولا شك انها قبل ذلك تكون عديمة النفع فيكون من
القسم الثالث بل من الثاني لأنها تكون مضرة كما قاله
صاحب مقالة الخلل في تركيب جسم الانسان ـ بزعمه ـ وهذا
لفظه الاعضاء الضامرة التي لا تقضي وظيفة بمثابة جسم
غريب في الجسم الحي وعلاقته بحياته تجعلها عرضة لعيوب
خلقية ولعوارض مرضية الخ .

ومن الواضح عدم الفرق بين العضو الزائد الذى قام بوظائفه
سابقًا والزائد الذى سوف يقوم به .

ولماذا ترى والحالة هذه تحفظ هذه الزوايد الكثيرة الغير
النافعة بل المضرة احيانًا وتحذف سواها مما لا تنفع في
التنوعات الآتية مع انه لا فرق بينها في الانتخاب الطبيعي
وكلاهما لا ينفعان الفرد حين تنازع البقاء .

ولا مناص للشارح وساير المعطلين من اهل هذه الاراء الا احد
امرين كل منها امر عنده من الآخر . اما رفع اليد عن هذه

الآراء . والقول بالتحول الفجائي . وان هذه الاعضاء تبدوا
دفعة واحدة عند التحول الى النوع الذى يلزمه تلك .
وهذا نقض لهذه الفلسفة من اساسه . والتزام برأى لا
يزال يفنده ويستهزؤا به . واما الالتزام بالبديهيات
الثلاث اعنى القصد والعلم والفعل للغاية . والقول بان هذه
الزوايد التي لا نفع فيها فعلًا تحفظها الطبيعة وتتحمل عبئها
الثقيل مدى الاجيال الطويلة لما يترتب عليها من النفع
بعد الاف الاف سنة . وفي هذا نقض لغرض (بختر)
واصحابه من هذه الفلسفة والتزام بالمبدء الذي لم يكتب
هذا الشرح ولم يعتنق مذهب (دارون) الا لانكاره اعنى
القصد والغاية في خلق الاشياء . اذ الطبيعة على مذهبه
ومذهب اصحابه عمياء فكيف تميز الزوائد التي لا تنفع الا
بعد احقاب فتدخرها ويحذف سواها فاكرم بعمياء غير
شاعرة تعلم ان هذه الحشرة تعود جملًا بعد تحولات عديدة
وتلك تكون رجلًا بعد اجيال تعد بالملايين وتعلم ما تحتاجه
كل منها من الاعضاء الكثيرة المختلفة في الكم والكيف
والوضع والتركيب و .. و .. و .. في كل دور من ادواره
الاتية فلا تزال تدخر النافع في كل دور من ادواره وتحذف

المضر وغير النافع حتى يعود حيواناً او انساناً كامل الاعضاء
تام التركيب متناسب الاعضاء وقليل لهذه العمياء يقل ان
يفدى بالف بصير من هؤلاء .

واني انشدك ايها الناظر في هذه الرسالة بكل مايعز عندك
ويحظى لديك ان تجرد ذهنك من جميع ما عرفت من
ادلتنا وما خامره من شبهات هؤلاء وافرض نفسك رجلاً
لم تسمع كلمة من كلمات علماء الدين ولا شبهة من شبهات
الماديين وانه ليس عندك من العلم شيء سوى ماقرره
هؤلاء في هذا المقام وما نبهناك عليه الان .

ثم راجع ضميرك الحر وحكم وجدانك الصادق لترى
هل يحكم بجواز ان يكون ذلك فعل الصدفة الصماء ونتيجة
الاضطرار او يحكم حكماً قطعياً بان ذلك فعل صانع
حكيم مختار .

ثم ماشأن المحاسن المودوعة في الخلق الساحرة للالباب
وكيف رأت هذه العمياء العيون والحواجب والثغور .
فاستحسن في هذه الدعج . وفي هذه التقوس والزجج .
وفي هذه الشنب والفلج . ومن اين تعلمت وهي غير شاعرة
نكتة التدبيج من علم البديع . فدبجت الوجوه الملاح .

احسن تدبيج . ولم تقتصر على التدبيج من نكاته بل
اودعت الطباق والجناس في الاحداق والاهداب وفي
الخصور والشعور الايجاز والاطناب الى غير ذلك مما لو
اضفت اليه اشباهه والحقت به ما كان من بابه لعرفت ان
صاحب هذا الاختراع ابي الا ان يكون الانسان احسن
شواهد الابداع . والقوم يعللون محاسن الاحياء بانتخاب
اخر يسمونه الانتخات الجنسي او النوعي وهو ثاني
الانتخابين المنسوبين الى (دارون)

(الانتخاب الجنسي)

وهو نتيجة تنازع الذكور على الاناث اوالعكس فما
في احد النوعين من المحاسن يوجب ان يفضله النوع الاخر
على غيره فيبقى نسله دون غيره . وهذا الانتخاب لم يذكره
شارح مذهب (دارون) بل جاء في كلامه عرضاً كما ستسمعه
وقال (هيكل) انه يحصل بين الطيور ذوات الاصوات
الحسنة تنازع في اجادة التغريد للحصول على الاناث . وذكر
اشياء منها الالوان الجميلة والاصوات الحسنة . وزعم ان
الاناث يفضلن ما كان حاوياً لمثل هذه الصفات

وعلى ذلك فمقدمات هذا الانتخاب كالانتخاب الطبيعي

ومواضع الانتقاد عليه تعرف مما مرّ في الانتخاب السابق
ونزيد عليه بعد ان من الظاهر متابعة اكثر طوائف الحيوان
لقوم من اتباع هذه الفلسفة في تجويز (البوليندريه) اى
تزوج الانثى باكثر من واحد .. بان الغالب في هذا التنازع
غالباً هو الغالب في ميدان النزاع الاول اعنى الاقوى وللقوة
كما تعلم اسباب من اضعفها الجمال . والشهير (دارون) يعرف
ذلك ويقول لقد تنازع الرجال المتوحشون على المرأة مدة
اجيال كثيرة وكان الفوز لمن اتصف بالبسالة والاقدام
والبأس والصبر وهذه الجميلات من النساء يستأثر بهن
الملوك والاغنياء والشجعان ولعل في مأته منهم لايوجد
عشرة من ارباب الجمال وهن ايضاً كثيراً ما يقد من المال
والدعة وخفض العيش على الجمال المجرد. ثم هذا الانتخاب
ان تم فلا يعلل به الجمال في اصناف النبات فلماذا هذه
الاشكال البديعة في نجومها واشجارها وهذه الالوان الزاهية
لانوارها وازهارها وما هذه الاغصان النظرة . والروائح العطرة
ولكن لهؤلاء الفلاسفة من سعة الخيال ما يسع الضدين .
الممكن والمحال ويقبل كل جزل ورطب من التعليل الا ارادة
الخالق الجليل . فربما علل احدهم الجمال في النباتات بان

تلقيحها يتوقف على الطيور والحشرات وهى تختار الجميله
للتلقيح — ويغفل من ان كثيراً من النبات يتلقح بالهواء
لا بالحيوانات . ومن ان العجماوات قليلة الادراك لما في
المصنوعات الجميلة من الجمال حتى ان بعضهم جعل ذلك اعظم
فارق بين الانسان وبينها . وكان الاستاذ (هكسلي) ممن
يذهب الى هذا المذهب .

ثم هب ان هذه الحيوانات الملقحة عذريه الهوى والغرام
وهائمة بالجمال وكعروة بن حزام ولكنها لاتريد بذلك
مغازلتها لكى تختار احسنها بل تطلب رزقها المقسوم لها وعند
اى نبات وجدته لقحته حسناً كان قبيحاً ثم لاادرى بم يعلل
هذا الحسن والانتظام الذى في الفواكه والاثمار وما فيها
من الطعم المحبوب والنكهة الطيبة ونحوها مما لايوجد الاّ
بعد التلقيح .

ثم ذكر كلاماً محصله ان (دارون) توصل الى الانتخاب
الطبيعي بدرسة علم تحسين الحيوانات والنباتات واطال
الكلام فيه ولا كلام لنا فيه سوى عتابة في انه نظر في علم
التحسين الصناعى ولكنه لم يثبت النظر . ولو اثبتة لتوصل
به الى اشرف واسمى مما وصل اليه . لأنه اذا كان احداث

محسنات معدودة في نبات اوحيوان لايكون الاّ بارادة حكيم قاصـد لحصول تلك المحسنات عارف بما يناسبه من الغذاء والهواء والمكان ذى قوة مميزة بين المتصف بالصفة الحسنة والفاقـدة لها . والطبيعة العمياء لو تركت وشأنها لايكون منها الاخبط عشواء ولايأتى منها حسن الاّ في ضمن قبائح ولاالقرب الى تحسين ماالا مع البعد عنه بمراحل فكيف بهذه المحاسن التى ملات الفضاء وكتبت اياتها على اوراق نجوم الارض الى اشعة نجوم السماء .

اما انه لواصاب رشده لسمى نظريته بالتحسين الالهى بدلاً عن التحسين الطبيعي وربـح خسارته عدد الاصابع مـن المعطلين ورضا الوف مـن العلماء والفلاسفة وعامة اهل الدين .

وقال في قياس الانتخاب الطبيعى بالصناعى ما لفظة فانها (يعنى الطبيعة) لاتفتر لحظة واحدة عن جعل اقل التغييرات في الاحياء ممكنة فان كان جيدة حسنتها والا لاشتها .

لاادرى كيف تميز الطبيعة بين الحسن وغيره وهى بزعمهم عمياء وكيف تحسن وهي عندهم غير شاعره ولماذا تبقي الحسن دون غيره وهي على مذهبهم لاتقصد غاية . وهل

هذا الا خروج عن المذهب المادى واعـتراف بالامرين الامرّين من العلقم في اذواقهم بل نقض للغرض الذي اسست لاجله هذه الاراء والتزام بعد الصخب واللغط وارتكاب فنون من الشطط واللغط بما التزم به سائر العقلاء (وكان) اللائق بهـذا ان لايفرق بين النافع والضار ويحكم عليهما معاً بالخضوع لناموس الوراثة وتناقلهما معاً الى الاعقاب حتى تنتزع بعضها بيد المباينة فربما سقط بها النافع وبقي الضار او يسقط بعضها بعدم الاستعمال على مايذهب اليه (لامرك) كما صنعه غيره من اخوانه واختلق لذلك ان نوعاً من الحيوان نمت قواطعه لدرجة تعذر معها فتح فمه للاكل فانقرض النوع .

وقـد انذر (برانكو) جيل البشر بمثـل ذلك . فقال ان نمو الدماغ البشرى سوف يعقبه انحطاط في الجسم يمنع الانسان مـن الارتزاق والتناسل فيبيد نوعه (انظر الى مابلى به هؤلاء من الخيالات الواهية واشكر الله تعالى على العافية) فما باله لم يلتزم بان بقاء الاعضاء النافعـة وملاشاة المضرة لكل نوع بحسب حاله نتيجة الصدفة والاتفاق اتراه يرهب مخالفة العيان ويهرب من مصادمة الوجدان وهو مقدم على

ماهو اشد منه بداهة وا كثر وضوحاً وكيف يقدم على القول بها في جميع الكون من ادني الارض الى اعلى السماء ثم يفرق من الالتزام به في بعضه كعدة من الاعضاء وبالجملة هذا القول مما تبرء منه اهل الدين ولا ينطبق على اصول المعطلين فلا بدله من احد امرين اما الايمان بالخالق الجليل او الالتزام بمجرد الصدفة وترك التعليل اذ ليس في وطابه سوى الانتخاب الذى عرفت انه ان صح فلا يغني عنه شيئاً في المقام.

ثم ذكر قليلاً من واضحات مااودعته الحكمة الالهية في بعض اصناف الحيوان تذكرة وليس مما يوبه اذ يعرف اضعاف ذلك اقل اهل الايمان ولكن.

(السريع)

(كل حديث كان عن حسنه)
(يعشقه القلب ويستعذب)
(لكن ما يرويه اعداوه)
(عندى في شرع الهوي اعذب)

قال ولهذا السبب كانت الالوان التي تقي الحيوانات من مطاردة اعدائها لها. وكان رأس منقار صغار الطير الرخص

الذي يشق به قشر البيضة التى تكون ضمنها ولون ناقر الخشب الذى يتسلق الاشجار ويفتش على الذباب تحت القشر وتكوين مخالبه ومنقاره وذنبه ولسانه المناسبة ذلك لجنس معيشته ولهذا السبب عينه كانت قوائم المعزى السريعة العدو وبصر الجوارح الحاد وسلاحها القوي. وله ايضاً ولا انتخاب يسمى جنسياً قرن الآيل القوي وعرف الديك وكذلك طول عنق الزرافة التى ترعى افانين الاشجار العالية.

لا ادري اي سبب عناه (بختر) من قوله ـ ولهذا السبب ـ أتمييز العمياء الصماء الجيدَ من الردى والنافع من غيره ام عامل الانتخاب الطبيعى الذى عرفت انه بمعزل عن قضية كون شئ لحيوان بل اقصى مدارجه ان يقضى بالهلاك على الحيوان الفاقد له فهو لا يبين السبب فيما للحيوان من اللون الذى يقيه من مطاردة عدوه له بل يبين السبب في هلاك الحيوان الفاقد لذلك اللون وقس عليه سائر الامثلة التى ذكرها ومن العجب ان (بختر) يبنى كتابه على مجرد الصدفة والاتفاق وانكار اتقان الصنع في المخلوقات بل الاستهزاء بمن يدعى ذلك ثم يتلوا عليك هنا ادلة الاثبات وهو يزعم

انه ينقض بنيانه ويهدم مابناه من التعطيل وهو يزعم انه
يشيد اركانه (يُخرِبُونَ بُيوتَهُم بِأَيدِيهِم وَأَيدِي
المؤمنينَ فاعتبروا يا أُولِي الأبصار)

واما مانقله عن (دارون) في السبب لطول عنق الزرافة
فمن اسمج التعليل وابعد التخرص ولا يحضرني كتابه لانظر
ارائه في بقية الحيوانات بل النباتات ولو شاء ان يطول اذان
الارنب وقرون الآيل واذناب البقر وخرطوم الفيل بمثل
هذه التكليفات وفرض الازمات المتواليات اذا يطول
عنائه ويقع في ورطات لا يرجى له التخلص عنها

على انه حاول اقناع اتباعه في طول عنق الزرافة فاوقعهم
في الحيرة العظمى واتي المعطلين بالطامة الكبرى حيث حكم
بتناسب الاعضاء في الجسم الحي وفصله الشارح بقوله . وليعلم
ان مثل هذه التحولات يتم بمساعدة قوة شديدة يسميها
(دارون) النمو المشترك ويراد به ان اعضاء جسم حي ذات
نسبة ثابتة بينها لا تتغير بحيث لو تغير عضو لوافقة تغير ايضاً
مناسب له في سائر الاعضاء .

فقد شوهد ان طول القوائم يكون مع طول العنق
وان الحمام القصير المنقار رجلاه قصيرتان ايضاً وان

القطاط التي عيونها زرق هي عادة صماء وان الكلاب المدبغة
الشعر اسنانها ناقصة الخ .

سبحان الله تكلفوا وتمحلوا لطول عنق الزرافة الف محال
ليستغنوا بزعمهم عن الخالق عزّ وجل فوقعوا لاجله في سلى
جمل ودهاهم ما هو امرّ من الاول . الا سائل من هؤلاء
عن هذه القوة الشديدة ما سببها وباي ناموس توصلت الطبيعة
الى حفظ التناسب بها واذا طال عنق حيوان بالتنازع او
كبرت كفه بالاستعمال لماذا يتبعه سائر الجسم بتلك النسبة
مع انه لا يشمله ذلك السبب .

وهل يكتفي العلم عن فهم الحقايق بمجرد تسمية المجهول
قوة او يكفي لأن يدعي الانسان فيلسوفاً ان يضع اصطلاحاً
من غير ان يبين علةً او يكشف سبباً اذاً قربت المسافة
بين العلم والجهل وتأتى لكل جاهل ان يضع اصطلاحاً
لمجهولاته ويدعوا نفسه عالماً ثم اذا جاز لهم الاقرار بوجود
ما لا يعرفون كنهه ويرون آثاره فماذا الذي ينعمونه على
المؤمنين الذين ينبزونهم بالسذج البسطاء اذ اعترفوا بوجود
الصانع جلّ جلاله لما رأوه من آيات حكمته وشواهد
قدرته وان عجزت عقولهم عن درك حقيقته ومعرفة كنهه .

اظنهم يعادون لفظ الجلالة ولا ينكرون سوى الاسم
المقدس ولو لم تكن اسمائه تعالى توقيفية وجاز للمؤمنين
التسمية بالقوة لكفوا نزاع القوم واستراحوا من
مناظرتهم .

ثم الوجه في حفظ التناسب بين اعضاء الحي ظاهر على
مذهب المؤمنين السذج بزعمهم اذ التناسب ملاك الحسن
ودعامه بل هو معناه وحقيقته والحسن ابدع كل موجود
واهم ما يراعيه مفيض الوجود فلاغرو ان يراعيه في مخلوقاته
احسن الخالقين .

واما هذه الطبيعة العمياء فلا ادرى . اي غاية ترومها
منه . واي غرض ترمى اليه . اسفا على هؤلاء المساكين
لا يتأتى لهم التكلف في انكار آية للتوحيد الا بالاعتراف
بعدة آيات واين المفر لهم ممن ملأت آياته هذا الكون
من ادنى الارض الى اعلى السموات .

(فصل) عرفت في اول هذا البحث ان المهم الذى تترقبه
من هذه الاراء هو معرفة السبب الطبيعى المحض لهذه
الاعضاء المختلفة لانواع الحيوان وقد كانوا يعللونها بالانتخاب
الطبيعى ونحن تلوناه عليك على علاته وعرفناك انه على

تسليم جميع مقدماته ليس في وسعه ان يصنع جناح بعوضة
وما فوقها مما منحته القدرة الكاملة للحيوانات المختلفة ولهذا
قام هذا المعطل الذي مبنى مذهبه الصدفة والاضطرار مقام
موحد يدعوا الى التوحيد بزعمه ويبين الحكم المودعة في
المخلوقات بمقدار فهمه . ولا يدري ان ذلك لا يناسب الا
اهل الايمان الذين لا يرون سوى شواهد التوحيد مسطورة
على صفحات عالم الامكان . وما يحسن القلبان في يدى
راعية الضان فلنرجع الى كلمات سائر رؤسائهم المتبعون
في آرائهم .

ولنبدء بمذهب (لامرك) فان الفضل الصحيح له وحده
في هذا المذهب كما يقول الشارح ويقول انه اول واضع له
حتى جاء (داروين) ووفاه حقه من الاعتبار .

يعتمد (لامرك) على عدة اسباب كالعادة والضرورة
وجنس المعيشة واستعمال الاعضاء وعدمه والتصالب وفعل
الاشياء الخارجية ورأيت في غير الشرح ان عمدة اعتماد
(لامرك) منها على البيئة واستعمال الاعضاء وعدمه وعلى
العادة والضرورة . فليعتمد على ايها شاء فاكثرها بمعزل عما
يرومه من السبب في حدوث الاعضاء مثلا استعمال العضو

واهماله الذي هو المهم في مذهبه على كلا النقلين انما يجدى
ان تم في تعليله قوة عضو او ضموره او فقدانه وما نرومه
من هؤلاء بيان السبب في اصل وجوده . فما نقل الشارح
عنه من ان الخلد ليس له عينان او هما اثر فيه لانه لسكنه
تحت الارض هو في غنى عنهما وعن النور . فلعمرك انه
من طريف التعليل ومعكوس الفلسفة ولا اعرف له نظيراً
الا ما ينقل من احدهم سئل بعض المغفلين عن الرامي لماذا
يغمض احدى عينيه فقال لانه اذا غمضهما معاً لم يبصر الغرض
وفيلسوفنا هذا يترك المهم من بيان سبب الاعضاء الموجودة
للحيوان ويبين سبب المفقود منها فيه ولك ان تتوسع فيه
وتنسج على منواله وتجيب مثل جوابه عن امثاله . فاذا قيل
لك ان المرأة باى سبب وجدت لها الثديان فقل ان الرجل
ليس له ثديان او هما اثر فيه لانه لعدم ارضاعه اولاده في
غنى عنهما . او قيل لماذا طال عنق الزرافة . فقل ان الغنم
لم تطل اعناقها لانها لاترعى اعالي الاشجار فكانت في غنى
عنه. والانتخاب الدرويني ايضاً كامن يكيل لك من هذا
الجواب ويمنح من هذا القليب لانك اذا سئلته عن السبب
للون الظباء العفر اجابك بان الظباء التي كانت الوانها غير لون

التراب راحت فريسة السباع وطريدة القناص . نعم الضرورة
التي ذكرها من الاسباب يصلح لان يكون هو الجواب
لكنه لعمر الفضل من الحكمة التي لم تخطر على قلب
(ارسطو) ابي الحكمة وما كان يهتدى اليه سقراط ولو
مكث في دنه الف سنة وشرح هذه الحكمة الجديدة على
ما ذكره الشارح (ان الجسم يوفق للاحوال الخارجية
ولاحتياجاته بقوة نفسه) وان لم تفهم بعد المراد فلا الوم لك
فيه فاستعن عليه بالامثلة التي نقلها الشارح التي منها
(والطيور المائية كالبط انما كان غشاء بين اصابعها لاحتياجها
الى العوم واعتيادها له وميل الثور الى النطاح سبب قرونه)
وانت ان شئت زيادة الايضاح فاسمع لما نتلوه عليك من
كلام الشارح قال وافكار (لامرك) تتشابه جداً مع
افكار احد فلاسفة الالمان وهو (شونبهور) الذى يجعل
مبدأ كل شئ في الارادة فانه نظير (لامرك) يقول (ان
احتياجات الحيوان وارادته سبب اعضائه وكل اغراض
جسم هي مفعول ارادة ذلك الجسم فقرنا الثور انما هو لميله
وارادته النطاح وسيقان الايل السريعة لارادته العدو) .

فاتضح ان الفيلسوف الاول يرى الاحتياج وهو من
المعقولات الثانوية لا من الموجودات الخارجية سبباً لهذه
الاعضاء الموجودة في الخارج (لم يرض المليون بالمادة وهي
من الموجودات الحقيقية ان تكون هي الموجودة فاتاهم
ما لم يكن في الحساب من الموجودات الاعتبارية واظن
الامر سينتهي الى الاعدام الصرفة) ولا يبالي بما يشاهده
من الاحتياجات الكثيرة التي هي موجودة لصنوف
الحيوان والنبات الآن . فما احتياج البط الى العوم باكثر
من احتياج القط الى جناح يطير به الى اوكار الطيور ليهجم
عليها في غفلاتها ويصطادها وهي في لذيذ سباتها . وما
احوج القمل المسكين الى ارجل كأرجل البرغوث يثب
بها من يد المتفلي متى وقع عليه ناظره ولا يستسلم له حتى
تقصمه اظافره . ولا بما يرى من الاحتياجات التي تعترض
لافرادها من جائع يحتاج الى قليل من الغذاء وظامٍ لا يجد
لروائه نغبة من الماء . فلا يرفع الاحتياج القادر على ايجاد
الاشياء احتياجها حتى يقضى ذاك سغباً وهذا عطشاً اللهم
الا ان يكون قدرة الاحتياج على خصوص ايجاد الاعضاء
لخصوصية لم يعرفنا هذا الفيلسوف بها . وعلى ان هذا الرأي

بعده عن الحق كبعده عن الوجدان ما اقر به اليه لو غير
البيان (فقال) ان الاحتياج موجب لأن تلاحظه العناية
الازلية فتمنحها ما يلزمه ما لم تزاحمه الحكم والمصالح الخفية .
والفيلسوف الثاني يرى ارادة الحيوان موجدة لاعضائه .
والارادة لا تكون لغير الحي . ولا ادري باي ارادة وجدت
الاعضاء التي هي لازمة لحياته في اول نشوه وابتداء تحوله
(ولو خلية واحدة) ولا يبالي كالفيلسوف السابق بما يشاهده
من ان القطة لا ترى طائراً في عشه على اعلى شجرة الا
وتريد ان تطير اليه ولا توجد لها ارادتها جناحاً تدنيها منه
وتساعدها عليه ولا يبالي ايضاً بما يرى من ان كل فرد من
الحيوان يريد في كل آن ما لا يجد اليه سبيلاً ولا تغني
ارادته فتيلا الا ان يجعل قدرة الارادة محدودة بحد لم يعرفه
او لم يعرفنا به .

ويشترك الفيلسوفان في القول بان قرني الثور خلقا بميله
الى النطاح ولا يكترثان بما يعلمان من ان ميل الثور الى
النطاح ليس باشد من ميل الانسان الى الجناح ليطير به في
طبقات الهوى الى من بعد عنه من الاحباب والاخلاء .

وهاهنا رأي آخر لفيلسوف آخر يسمى (بطلر) وهو

ان الطفل هو الذي يصنع عينيه في رحم امه .

وليعذرني القارئ الكريم عن جواب هذا الرأي لانه امر لا استطيعه الا بمخالفة سنة الآداب وغيرها شرطي في هذا الكتاب .

ولا ادري ما اقول لمن بلغ مبلغ الرجال واشتغل بفني التشريح والفيسولوجيا مدة طويلة وهو لا يعلم بعد كيفية صنع العينين ولا جميع الحكم المودعة فيهما ثم يزعم انه صنعهما في رحم امه .

هذه آراء في تكون ما للحيوان من الاعضاء وانت ثبت الله تعالى في المزال وطأتك . وتولى بلطفه هدايتك في غنى بسلامة الوجدان عن ردها بوافي البيان ولك في العجب بصدورها عن قوم يسمون بالعلماء ويعدون في عداد العقلاء شغل شاغل من العجب بها . ولولا اهواء كامنة في نفوس مقلديهم وشهوات تجعل غشاوة على ابصار متابعيهم لكانوا اشد منك تعجباً منها . واكثر استهزاء بها واغرب ضحكاً عليها . ولكن نفوس وافقت هذه الاراء شهواتها فقبلتها على علاتها (من الخفيف)

(انما تنجح المقالة في المر .)

(اذا وافقت هوى في الفؤاد)

لهم العذر من هذه الجهة اذ مجرد اعتقاد الانسان بانه متحول عن الحيوان لا يكفي لان يتأسي باجداده البهائم فيقدم على المآثم ولا يتحرج من المحارم ويمتطي غارب شهواته ويستهتر في لذاته اذ لا يأمن مغبة الفضائح الا بانكار الصانع ليأمن الوعيد فيفعل ما يريد .

قرأت في مقالة لاحد كتاب العصر ان الاستقراء التام يدل على ان معظم المعطلين شهوانيون ومعظم الشهوانيين معطلون ثم ذكر ما يقع في المدارس العلمانية في فرانسا وتنبه عقلائهم لهذا الداء واتفاقهم على ان ترك الدين والتعطيل هما اللذان سببا هذا الداء الدخيل .

واني سائل من هؤلاء سؤال عالم متجاهل (وكم عالم بالامر وهو سائل) عن العلم الذي كنا نهدد به وكان يخشى على الدين منه ويعد الدين حجر عثرة في طريقه اهو هذه الاراء وامثالها اما ان تنصفوا وتعلموا ان الدين ليس حجر عثرة في طريق العلم بل هو حجر صحي وضع على حمى الافهام لئلا يدخل فيها هذه الاوهام .

(رجع) الى ما كنا بصدده ونحن نعيد مطالبة هؤلاء

ببيان سبب طبيعي صرف يمكن ان يحدث به الجناح لبعوضة
ونتنزل عن مطالبتهم بالاسباب الموجودة لسائر اعضائها وسائر
اعضاء صنوف الحيوانات والنباتات ولا نطالبهم بالدليل
بل نكتفي منهم بالامكان اذا لم يكن مما يضحك منه وتنبو
الاذهان المستقيمة عنه . هيهات اني لهم ذلك وقد حاوله
قبلهم اناس كانوا لا يقاسون بهؤلاء في حصافة الرأي وسعة العلم
وحدة الفهم باذهان كانت اورى من اذهانهم زنداً وامضى
شباً وارهف حداً . وقد دخلوا عليه من بابه ومتوا اليه باسبابه
فما زادهم طول البحث وكثرة الفكر الا حيرة على حيرة وبها
ازدادوا بصيرة على بصيرة ولولا خوف الاطالة والخروج عن
موضوع الرسالة لتلوت عليك من كلامهم نتفاً وقصصت عليك
منها طرفاً واخشى ان تزعم من هذا الالحاح في المطالبة ان معرفة
تلك الاسباب تفضي الى التعطيل ولهذا نجتهد في سد ابوابها
كلا بل لا يتقدم العقل فيها خطوة والا ويتقدم في معرفة
مسببها خطوات كما سمعت اجماله في اول الرسالة وتسمع
تفصيله في غير هذه المقالة . وما هذه المطالبة وهذه الالحاح
الا قضاءً لحق العلم وتمحيص الحقايق وتنبيه هؤلاء على ان
من يعجز علمه عن معرفة السبب لاقل الخلق كيف يجسر على

انكار الخالق (قال) لا ينبغي ان يظن من ذلك ان (دارون)
ينكر تأثير الاسباب التي يذكرها (لامرك) . كلا بل
بالضد يعترف بتأثيرها ويضعها في مقام رفيع بجانب الانتخاب
الذي يعده في المقام الاول . والاسباب المذكورة كما تقدم.
العادة والاستعمال والضرورة . ومن الامثلة التي يذكرها
(دارون) يعلم مالهذه الاسباب عنده من القيمة في امر
التغييرات الحادثة (ثم ذكر الامثلة وهي نظاير الامثلة المتقدمة
وفيها ما تقدم بعينه) ثم قال ويعترف (دارون) بتأثير الاحوال
الخارجية للحياة التي يعتبرها (جفورى سينتيلير) كالاقليم
والتربية والقوة والنور والهواء والاقسام اليابسة والمياه
الخ .

هذه الفلسفة التي كان ينوه بها ويعظم امرها ويطرى
(دارون) غاية الاطراء لاجلها اخذ الان يحط من شأنها
ويحقر قدرها . بيانه ان مذهب التحول كان معروفاً قبله
بقرون كثيرة وعلى قول الشارح (ص ٧٠) وجد في كل
زمان من الفلاسفة والعلماء من قال به ووجدت في بعض كتب
هؤلاء ان اول من قال بتدرج الانسان عن الحيوان (ابن
الفضيلي القيسي) صاحب رسالة حي بن يقظان والارتقاء .

مما قال به (لامرك) واوضحه ببراهين طبيعية على ماذكره الشارح (ص ٧١) فلم يبق لمذهب (دارون) من الفضل الا جعل عالم الاحياء خاضعاً لناموس عام يشمله باجمعه ولا اقل لمعظمه بحيث لايشذ منه الا تغييرات طفيفة بعوامل ضعيفة وهنا قد نسب الى (دارون) الاعتراف بما يعتمد عليه (لامرك) وجعله لها بمقام رفيع . والاعتراف ايضاً بما يعتبره (جفروى) . وزد عليه مايذكره فى اثناء كتابه من العوامل التى يعظم امرها كتغيير التكوين الذى قال في المقالة الثانية (ص ١٢٧) انه لابد من التسليم به ويقول هنا ان (دارون) يظن انا غالباً لانعرف شيئاً من النواميس التى تتغير الاحياء بموجبها وان مانستطيعه من ذلك انما هو التأكيد بوجود هذه النواميس ويقول في المقالة الثانية (ص ١٢٤) لو اطلقنا مذهب (دارون) على جميع الحوادث المقررة او على ظواهر الحياة اجمع لوجدنا كثيراً منها لاينطبق عليه وربما كان معه على طرفي نقيض ويستدل منه على ان الطبيعة سلكت سبلاً اخرى ايضاً لتحويل الانواع . ولا شك في ان هذه السبل عديدة جداً لانه من المسلم ان الطبيعة في تفننها الذى لانهاية له يندر ان تبلغ غايتها بسبيل واحد .

وانا من رأى (شارل فوجت) حيث قال في بحثه عن مذهب (دارون) في (غازت د كولو ين) وقد اقر على صحته ان طرقاً كثيرة تؤدى الى رومه الى غير ذلك من كلامه الذى لايهمنا استقصائه واذا كان الامر كما يقوله (بخنر) لم يبق فضل (لدارون) الا تنبهه لعامل واحد يشترك في الفعل مع العوامل الكثيرة التى ذكرها (لامرك) و (جفروى) وغيرهما وعوامل كثيرة لم تزل مجهولة . ومن الظاهر ان (انصفت) ان هذا المقدار من الاكتشاف ليس مأثرة يستحق صاحبها هذا الثناء ويعد مخترعاً لفلسفة التحول والارتقاء . واذا قسم الفضل فيه على عدد تعداد العوامل فلينظر ماذا نسبة حصة (دارون) الى حصة (لامرك) و (جفروى) وغيرهما . ولا يكفي . للاعتذار مايقوله الشارح هنا من الانتخاب الطبيعى هو العامل الاكبر بعد اعترافه بانه يصعب بل يستحيل علينا ان نعرف كم يخص كلا من هذه الاسباب العديدة من كل من النتايج المختلطة الصادرة عن عملها المشترك فللتحول نواميس كثيرة وعوامل عديدة معلومة ومجهولة والمعلوم منها مجهولة مقدار فعلها فكيف يعلم مع

هذا وذلك ان الانتخاب الطبيعى هو العامل الاكبر ..
والشارح يكتفي تارة في فضل (دارون) بالتقدم ولو خطوة
في سبيل كثير العقبات كهذه ويغض من ان لغيره فيه خطوات
فلماذا اصار (دارون) هو الذى نسب اليه المذهب على ان
التنبيه لبعض عوامل التحول ليس بامر خطير يذكر ولا
بمأثرة تؤثر .

لقد هزلت حتى بدا من هزالها
كلاها وحتى استامها كل مفلس

فان الشارح بنفسه يزعم انه من جملة الذين تكلموا بمذهب
التحول قبل (دارون) بزمان طويل وجعل اسباب ذلك
فعل الاحوال المختلفة لسطح الارض وتغييراً تدريجياً في
الجراثيم من جهة اخرى .

وتارة يتهم (دارون) بما ينبغى ان ينزه عنه كل فيلسوف
ويقول في المقالة الثانية ما نصه : (ان (دارون) كثيراً
ما يذكر هذه الاحوال الخارجية الا انه لا يجعل لها فعلاً
الا مع الانتخاب الطبيعى وما ذلك الا تفضيلاً لمذهبه
لكي يجعل له المقام الاول على ان فعلها الخصوصى عظيم جداً)
سبحان الله شيخ هذه الفلسفة ومؤسس اركانها كيف

يغض الطرف عن الحقيقة ويجعل الانتخاب شريكاً لها مع
علمه باستقلالها تفضيلاً لمذهبه وحباً لأن يكون لرأيه المقام
الاول .. هذا من سوء الظن الذى قد يترفع عنه خصوم
(دارون) فكيف يسوغ لحامل عرشه وتابعه في رأيه ان
يتفوه به ولأن يدعى هذا (لدارون) جارحاً اولى بان يعد
لمذهبه شارحاً .

والذى اراه ان الانتخاب الطبيعى لو سلم وسلمت ادلته
من الانتقاد فلا تحط شيئاً من قدره هذه العوامل واضعافها
ولا ينقص من فضل (دارون) اعترافه بها وان (بختر)
اراد ان يشرح فجرح ويصلح فاسد وذلك لأن هذه العوامل
مهما بلغ عددها واشتد اثرها لا تؤثر الا في تكون التباينات
واحداث الاختلافات وهذا هو الذى يعترف (دارون)
بعدة منها مما ذكره غيره ويزيد عليه الاعتراف بوجود
نواميس كثيرة مجهولة مثلها تعمل عملها وتشاركها في فعلها
وليس هذا تمام مذهب (دارون) ولا به معظم فخره وانما
الذى اختص به هو ان هذه التباينات باى علة حصلت
تختلف نتيجته في ميدان تنازع البقاء فما اوجب منها القوة
لاحد المتنازعين يقوى على خصمه فيبقى ويفني غيره وينقل

ما اورث القوى الفوز في التنازع بقانون الوراثة الى نسله
وهكذا يفنى الضعيف ويبقى القوى مرتقياً حتى تتحول
وتؤلف الانواع الجديدة على ما سبق تفصيله وسبق ما عليه
من الانتقاد وهذا الفعل اعنى التحول وتألف الانواع خاص
بالانتخاب الطبيعى لا يشاركه سائر العوامل وانما هى
معدات لاحدى مقدماته وهى تكون التباينات .

فقول الشارح ان (دارون) لا يجعل لها فعلاً الا مع
الانتخاب الطبيعي صحيح وهذا معناه لا ما فهمه منه
ومن جراه اتهمه بما عرفناك به . وما اسباب حدوث
التباينات الا كاسباب الوراثة فهل اذا رفع المستقبل
الحجاب عنها كما ترجاه (دارون) تكثر شركاء الانتخاب
الطبيعى . نعم ان ثبت وجود نواميس تحول الاحياء
وتؤلف الانواع بغير توسط الانتخاب الطبيعى يتجه النقض
بها على (دارون) ويبين بها النقض في مذهبه كمذهب
تكوين الكثير الطبايع الذي نقله عن (كوليكر) الراجع
الى التحول الفجائى واستطاعة بيوض الحية الدنيا وجراثيمها
ان تتحول الى صورة اخرى ونحوه وليس من قصدنا
تصحيح مذهبه ولا موافقته على معتقده وانما نريد دفع ما

وقع فيه من سوء فهم اتباعه لكلامه دفاعاً عن الحقيقة
وقضاء لحق العلم .

عاد كلامه ولا يظن ان تجمع الصفات الموافقة للفرد ودوام
هذا التجمع فيه يسميان به نحو الكمال في كل الاحوال
فانه مهما كان سلطان التحسين والتكميل عظيماً فلا تحصل
عنه هذه الغاية دائماً لانه قد يكفي ان يكون في الفرد امتياز
ولو قليل المعنى حتى يقوي على اقرانه ولو كان اضعف منها
ولو في باقى الصفات . وقد يكون الامتياز احياناً سبباً
للانحطاط ككبر القد والعافية حين فقد القوت . وعليه
فالارتقاء يصاحب تغيرات الفرد غالباً لا دائماً ووجوباً . فربما
تقهقر الفرد ووقع في الحؤول كما في الدب الاسمر الحالى فان
اصله دب الكهوف الذى كان اكبر منه واقوى ولكنه
انحط الى حالته الحاضرة لتغيرات في سطح الارض وفي
المسكن والقوت وما شاكل هذا وكذلك الديدان البطينة فان
اصلها من دودة كانت سابقاً في الخارج اكمل منها ولكنها
فقدت بعض اعضائها لتغير جنس معيشتها فانحطت والسر
بيبد (حلزون مائى) الذى كان له قوقعة كلسية لما كان
مستقلاً فتعري من قوقعته اذ صار حامياً يعيش على حيوانات

اخرى . وذلك نتيجة الانتخاب الطبيعي لان القوقعة النافعة له في الحالة الاولى لاتنفعه في الثانية بل ربما اخسرته اذ تزيده ثقلاً لامعنى له . وعلى ذلك فكل جزء لايعود فيه فائدة يفقد رويداً رويداً .

ولنا في جعل جزيرة (مديرا) شاهد على مايحصل الضرر بحسب الامتياز فقد قال (داروين) ان غالب الجعل هناك لايطير لنقص في جناحيه . وسبب ذلك عنده ان ما كان منه قادراً على الطيران تسوقه الريح وتلقيه في البحر وتهلكه ولا يبقى منه الا العاجز فينتقل تكوينه منه الى نسله وهو لايخرج من مكانه الاّ بعد طلوع الشمس وانكسار شدة الريح ويكثر قيامه في الاماكن الرطبه بجانب الصخور التي تقيه من الريح واذاوجد منه مايطير في بعض الاماكن من الجزيرة المذكورة كان جناحاه قويين جداً لمقاومة الرياح فذلك شاهد على الانتخاب الطبيعي مشتركاً مع عدم استعمال الاعضاء .

فمن هذه الامثلة وكثير غيرها يعلم ان الانتخاب الطبيعي لايؤدي الى الارتقاء دائماً وان ادى اليه غالباً على ان الارتقاء كثيراً او قليلاً في العالم العضوي لا حقيقة له

واضحة ويلزم الانتباه الى ذلك اذا نظر الى الشيء على مذهب (داروين) فان الحال المناسب في ظروف معلومة من الزمان والمكان قد لايناسب في غيرها فان التكوين الكامل اذا كانت احوال الوجود بسيطة يكون نقصاً لا امتيازاً .

ولذلك كان الانتخاب الطبيعي يجعل في مثله والحالة هذه تقهقراً لا ارتقاءً . ولا تنس ماقلناه سابقاً وهو ان الانتخاب لايكون في كل قوته الا حيث يكثر ازدحام الاحياء المتنازعة ولهذا السبب كان وقوف بعض الانواع وارتقاء البعض الاخر

ثم اطال الكلام في بيان ذلك وذكر امثلته والاعتذار عن الصور الموجودة الدنية اوغير الكاملة مدي الادوار الجيولوجية على رغم الانتخاب الطبيعي وانه كاد ان يضعف به مذهب (داروين) لولا انهم وافوه بالبيان الشافي ونحو ذلك مما لايتعلق لنا غرض به فتركنا لذلك نقله .

ندع له المطالبة باسانيد انساب هذه الحيوانات التي ادعى تقهقرها ولانأخذه بما لخصومهم من الشغب عليهم لجعلهم التقهقر في بعض الاصناف نقضاً على هذه الفلسفة وعدّهم

ذلك نقصاً فيها . ونقتصر هنا على سوأتين تقدمت الاشارة الى اولهما . وهو انه باي سبب طبيعي محض يفقد الحيوان المتقهقر اجزائه التي لا نفع له فيها (وليست مما يستعملها بارادته ليعتذر فيه بمذهب (لامرك) كما في قوقعة السربيد التي ذكرها ولم لا تبق خاضعة لناموس الوراثة ينقلها الى النسل وان لم يكن له نفع فيها بل وان اضرته وزادته ثقلاً . ومن اين للصدفة العمياء هذه الشفقة على عالم الاحياء تدفع عنه المضار وتحط عن جسمه الاثقال والاوزار

ثانيهما ان التقهقر الذي جزم به فيما عده من الامثلة يحتمل في كل حيوان يجزمون بارتقائه فلعل هذه الحيوانات الدنيا جلها بل كلها كانت في الاصل حيوانات مرتقية فاقتضت بساطة احوال الوجود ومناسبة ظروف مكانها وزمانها فقدان اعضاء كان بها كما لها فلعل البرغوث والقمل كانا في جسم الجمل ولكنهما فقدا اعضائهما لما صارا حاميين يعيشان بغيرهما . وهب انه تأتى لهم الوجه في عدة منها فمن لهم به في جميعها .

واما جعل جزيرة (مديرا) الذي زعم ان لهم شاهدا فيه فقد نقض (ششنيكوف) الاستدلال به ولا تقوم بعد تجاربه

قائمة لهذا الشاهد ابداً . لانه تفرغ وهو في تلك الجزيرة لجمع الجثث المطروحة في البحر وقاس اجنحتها باجنحة التي لم تطر فلم يجد بينها ادنى فرق .

(قال) وقد رد (دارون) ايضاً على من يرى عدم ارتقاء كثير من الصور الحية تخطئة لمذهبه بما معناه . ان كثيراً من الحيوان بل غالبه فيه اعضاء موروثة لا فائدة لها وقد تكون مضرة لاختلاف احوال الوارث عن الموروث عنه كرجلي القرقاطه مثلا فانها في غنى عن الغشاء بين الاصابع لانها لا تعوم كاجدادها التي كانت مثل هذا الغشاء لازماً لها وامثال ذلك كثيرة جداً في الحيوان والنبات . ثم ذكر اعضاء كثيرة لحيوانات مختلفة زعم انها فيها اثرية . ثم قال (واعلم ان الوراثة في الحياة الجنينية اظهر من سواها فان في الجنين في الادوار الاولى من حياته شقوقاً على كل جانب من عنقه شبيهة بالاصداغ التي تتنفس بها ذوات النقر الدنيا التي لا رئة لها . والشرائين تنعكس على نفسها لتتصل بها كأن التنفس الصدغي مزمع ان يصير ثم يتغير هذا التكوين ويتحول الى سواه والرئة في اعلى ذوات الثدي ليست الا النفاخة

التي يعوم بها السمك ولكنها نامية ومركبة اكثر منهـا
والتنفس في (اللابيدوزير) الذي هو بين السمك والحشرات
في التكوين قائم بالاصداغ والرئتين معاً . ويرى فيه واضحاً
ان الرئة ليست سوى نفاخة مفصولة بحواجز كثيرة جداً
ومفتوحة الى الفم . ومبدء التكوين الجنيني واحد فان
جميع الحيوانات المختلفة تتشابه بعضها مع بعض في اول
درجات الحياة الجنينية . وتنشأ جميعها من صورة واحدة
اولية . ثم نقل كلام (باير) و (اغاسيز) في ادعائهما تشابه
الاجنة في اول امرها (انتهى)

وقد تضمن هذا الفصل من كلامه الاستدلال بالاعضاء
الاثرية وبالصور الجنينية وقد اسلفنا الكلام عليهما في
بحث اصل الانسان

ونزيدك هنا ان هذه الاعضاء الاثرية لاتوجد في جميع
انواع الحيوان بل في اكثرها وغالبها كما يقول الشارح فلا
يثبت بها ان التحول ناموس عام لجميع الاحياء . وفي كلام
(دارون) المتقدم دعوى انه لايخلو جسم فرد من الحيوانات
العليا منها فان صحت هذه الدعوى فلا تدل الا على تحولها
فقط والمدعي تحول جميع الاحياء حتى الدنيا عما هو دون

منها وقل مثل ذلك في تشابه الاجنة ولكن من مسائل
هذا عن هذه الدرر التي ظن بها على السمط فنثرها في خلال
هذا البحث بلا ربط . اعني بها قوله (والرئة نفسها في اعلى
ذوات الثدى ليست الا النفاخة التي يعوم بها السمك) وما
ذكره بعده من تنفس (اللابيدوزير) وما يري واضحاً فيه
وعن الذى دعاه الى هذا الفن المليح الواسع من العلم الذى
يمتد ولا يقف عند حد . اعني ليست هذه الا تلك . ولكنها .
(عاد كلامه) فهذه الاشياء لاتتفق مع المذهب القديم
اي مذهب الخلق اذ لامعنى لها فيه بل هى منافية له ايضاً
وربما عبثت بعلم اللاهوت الخ

يريد بمذهب الخلق مذهب استقلال الانواع وعدم نشو
بعضها من بعض ولكنه عبر عنه بمذهب الخلق لامر سوف
يذوق وباله . وهذا المذهب ان دافعنا عنه فهو دفاع علمي
محض لاديني — الا في عدة مسائل معدودة — واما سائر
صنوف الحيوان انشأت ونشأت انحطت اوارتقت فدلائل
الصنع والخلق ظاهرة فيها لائحة عليها وقد مر في بحث اصل
الانسان مايكفي القائل بهذا المذهب للدفاع عن قوله والنضال
عن مذهبه — واما قوله ربما عبث بعلم اللاهوت — فما قاله

الا لجهله بذلك العلم المقـدس حيث لم يكن من اهله ولم
يعرف شيئاً منه والا لعلم ان ذلك للعلم امنع حمى واعز جانباً
من ان تعبث به هذه البسابس اوتؤثر فيه هذه الوساوس .
وليت شعرى كيف تعبث به وهى احدى شواهده ومن
اجدى ادلته فهب انا سلمنا وجود الاعضاء الاثرية في الحيوان
فهل هى الا اعضاء وجدت (بل اوجدت) عند احتيـاج
الحيوان اليها وتوقف معيشتها عليها . ثم دفع عنه ثقلها عند
استغنـائه عنها ووضع عنه عبئها على ما اقتضتـه الرحمة
الشاملة اولاً والحكمة اخراً ولو لم يكن في صفحة الامكان
شيء سواه لكان كافياً لكل من منح اول درجة العقل ولم
يفسد منه الوجدان بان يعلم ان للكون مدبراً حكيماً يوجد
الاشياء عند الضرورة ويعدمها لدى الاستغناء عنها تدريجاً
كما اوجدها كذلك على ما اقتضاه النظام الاعلى وجرت عادته
المقدسة في سائر الكون .

فانظر هداك الله تعالى الى هذه الاشياء التى ذكرها هل
تعبث بالدين او تعبث بلحيته ولحى اصحابه الماديين الذين
يرون الكون نتيجة الصدفة العمياء وماذا على الصدفة العمياء
ان تبقى في الجسم مالا نفع فيه من الاعضاء اتخشى ان يكون

ذلك نقصاً في حكمتها او منافية لقصدها ،

ولو قال ان سببه عدم الاستعمال فهو على انه اجمال على
اجمال لا يطرد في جميع الاعضاء وقد سبق ذلك ونعيده مع
زيادة توضيح لاقتضاء المقام ونقول توسع (لامرك) في
هذا الناموس حتى قال كما نقله الشارح (ص ٧١) ان الطفل
اذا ربطت احدى عينيه ينتهى الى ان يصير اعور واذا تكرر
ذلك عدة اجيال يتكون نسل اعور واذا انتهيت المسائل
العلمية الى هذا الحد وانحطت الى هذه الدرجة فلا تقابل الاَّ
بدعوى انها تزداد قوة بالاهمال وتضعف بالاستعمال وان
الطفل الذى ربطت احدى عينيه تقوى تلك العين جداً
بعد حلها وتؤيد بما هو معلوم انها تضعف بكثرة النظر
والاحداق كما يتكهم السيف الصيقل اذا اكثرت به
الضراب وتبقى الحقيقة مرددة بيننا وبينه حتى تفصلها
التجارب ولا يكفي في اثبات مثل هذا الناموس العام نقل
قضيتين او ثلاث فانها تنقض بمثلها او اكثر منها . ولا
نأخذه بان المطلوب من الفيلسوف بيان السبب في مثله
وامثاله حتى ينتهى الى الصفات العامة للمادة التى لا تعلل
بزعمهم الاَّ بنفسها . فالعلم بان السيف يفقد مضاء حده اذا

بقي خارجاً عن غمده معرضاً لرطوبة الهواء يعرفه العامي كما
يعرفه العالم وانما يختص الفيلسوف مثلاً بعلم انه تصدى
بذلك حديدته فتذهب حدته وبمعرفة سبب الصدء وسبب
ذهابه بعضاء السيف وهكذا فلا يكفي من يريد العبث
باللاهوت هذا المقدار فلعل احد المؤمنين المنبوذين بالسذج
عنده يقول ان اهمال العضو ملازم لعدم الاحتياج وعدم
استفادة الحيوان به فتحذفه حكمة خالق الاشياء عن سطر
الاعضاء لا ان ترك الاستعمال هو المؤثر في فقده . وببالي
اني رأيت في كلمات هؤلاء ما معناه : ان الطبيعة لا تبقي
شيئاً بلا فائدة كما لا تحدثه بغيرها وقد عرفناك قبل بان المعنى
المعقول من هذا التعبير وامثاله هو الذي يعتقده المؤمنون .

ومع الغض عن هذا وذاك نقول ان من الاعضاء الاثرية
مالا معنى لاستعماله حتى يكون ضموره اوفقده لاهماله وذلك
كالشعر المجلل للجسد . فالانسان الذي كان له في ادواره
السابقة من الشعر ما يجلل جميع جسده لا يعقل ان يكون
سبب فقدانه اهماله الآن اذ لا معنى لاستعماله في غابر الزمان
وكذلك القوقعة الكلسية للسربيد ونحو ذلك مما لا داعي
الى استقصائه .

ولعله يرى سبب عبثها باللاهوت ما قاله (هكل) من
ان فيها انتقاض دعائم التلولوجيا اي الاسباب الغائيه .
لأن من هذه الاعضاء ما هو غير نافع وقد يكون مضراً .
ومن ثم مغايراً للغايه .

ان كان الشرط في صحة التلولوجيا وجود النفع للعضو
في جميع ازمنة وجوده فهو منتقض قبل الدستيلوجيا
وكان من الواضح فساده وان لم يخلق (دارون) ولم يدون
فلسفته ولم يكن ازالة الاعتقاد بالاسباب الغائية نتيجة
اخرى لفلسفة (دارون) ربما كانت اعظم من مذهب
(دارون) كما يقوله (بخنر) في المقالة الثانية (اذ كان
في عدم النفع لرجلي الرضيع الى ان يستطيع المشي واعضاء
تناسله الى ان يبلغ . وفيها بعد ان يهرم ولا يستطيع مباضعة
النساء وفي رحم المرأة بعد اليأس وفي ثدييها في غير زمن
الارضاع ونحوها غنى لاثبات فساده والفند على معتقده
وان كان يكفي فيه النفع في الزمان الذي خلق من اجله
فلا انتقاض لدعائم ذلك العلم ولا خطر عليه منها غاية الامر
ان القدرة الازلية يجري فيها على ما جرت عليه في نظام
الكون اجمع من التدريج فيعدمها تدريجاً كما اوجدها

كذلك على معتقدهم فكان هؤلاء لا يرضيهم من التلولوجيا
الا ان توجد الانثيان والشديان للغلام والجاريه في اول
زمان بلوغيهما دفعة واحدة ويعدمان دفعة في آخر زمان
قابلية التناسل لهما اذاً لا ارضاهم الله تعالى عنه ابدا .

(عاد كلامه) على ان (دارون) لم يحصر الاحياء في اصل
واحد . وربما كان ذلك لعدم جسارته لا لسبب آخر فجعل
الحيوان من اربعة او خمسة اصول اولى مخلوقة منذ زمن
طويل كل اصل زوج وكذلك النبات (ثم نقل عنه كلامين
صريحين في ان الاحياء اصلها واحد) ثم قال فهذا القول غير
قياسي ويجعل المذهب ناقصاً وربما نقضه ايضاً وقد قام الاستاذ
(برن) مترجم (دارون) ضده لانا اذا سلمنا بافعال خالق
خصوصية لثمانية او عشرة ازواج اصلية فما المانع من
اطلاق هذا الخالق على جميع الاحياء وما الداعي بعد ذلك
لتفسير ظهورها على سبيل طبيعي لانسيان عند الفيلسوف
حصول الفعل الخالق (كذا عبارته) مرة او مرات فالتسليم
به ولو مرة اقامة المعجزة مقام الناموس الطبيعي فليس لنا
الا ان نتوسع بمذهب التسلسل الذي وضعه (دارون)
حتى اخره ونجعل العالم العضوي يشتق من صورة واحدة

بسيطة جداً من الكريه او البيضيه الخ .

ثم طفق في ذكر ماسولته له نفسه ومثلته له وسوسته
من البحث عن تلك الصورة الواحدة البسيطة ولا يهمنا الان
ذلك ان كان (دارون) لم يحصر الاحياء في اصل واحد فلا
اظن له سبباً الا انه لم يجد من الادلة مايقوده الى ازيد من
العدد الذي يذكره فتنزه فلسفته عن الجزاف ونفسه عن
القول بغير دليل . بل سار مع الدليل حيث سار به ووقف
حيث وقف به لعلمه بان من سار بلا دليل ضل ولكن الشارح
لمذهبه جرى على سوء ظنه (بدارون) فجعل سببه عدم
جسارته فقط . وان كان السبب مازعمه فليس مما يؤخذ به
(دارون) وينعى عليه فيه اذ ليس عدم جسارته لمايظنه
الشارح بل لان العالم لايجسر على القول بلا دليل ويجبن
عن الدعوى بلا حجة والحكم بموجبة كلية لاجل قيام
الدليل على موجبة جزئية .

والجمل التى نقلها الشارح عنه فيها من التهافت الواضح
مالاينبغى صدوره من مثله . وايا كان مذهبه هذا او ذاك
فما اثار سخط الشارح عليه وحمله على الوقيعة فيه الا قوله

نفخ فيها الخالق روح الحيوة . اذليس في الكلام ما يسخن عينه وعيون النداد من ملاحدته مثل لفظ الخالق جلت قدرته ونسبة الخلق اليه ولو قال (دارون) نفخت الصدفة العمياء فيها روح الحياة لنجى من العتاب وما صب عليه اصحابه سوط عذاب . وماهذا الالحاح الى ارجاع الاحياء الى اصل واحد الا لامر رامه وقد عز مرامه وغرض رمى اليه وقد طاش سهمه .

وهذا مقام مهم جداً لابد من بيانه وتوضيحه وان ادى الى الاسهاب ومد اطناب الاطناب .

اعظم شبهة دخلت في امر التوحيد على هؤلاء . واكبر داع لهم الى التنويه بفلسفة النشو والارتقاء . هو ظنهم ان الموحدين التجأوا الى الاقرار بالخالق حيث جهلوا الاسباب الطبيعية التى تجرى الكون عليها وانهم رأوا حوادث عجزوا عن تعليلها لنقصان علومهم فعللوها بالقدرة الالهية ولو عرفوا الاسباب الطبيعة اجمع لدانوا مثلهم بترك الدين واستغنوا عن الاعتراف برب العالمين . وحيث كانت هذه الفلسفة تتوسع في بيان العلل الطبيعة للاحياء ولا يدع حادثاً فيها بلا تعليل . ان لم يكن بالممكن فبالمحال او باليقين

فبالاحتمال هاموا بها واعتنقوها وجعلوا وكدهم الاطراء عليها والذب عنها . ولو عرفوا حقيقة معتقد اهل الدين وان معرفة الاسباب تزيدهم يقيناً على يقين لتركوها ترك الظبي لكناسه وظله وزهدوا فيها زهد المسافر فيماجف من زاده اذا قدم الى اهله .

وما ذكرنا من عظمة هذه الشبهة عندهم بل انه السبب الوحيد لالحادهم امر لايحتاج الى البيان واذا تأملت شرح (بخنر) ومقدمتى معربه وماتشدق به في حقيقته (١) عرفت انا قد اصبنا المحز ولم نخطأ موضع الداء . وقد صرح به احد خطبائهم في مجلس حافل لهم في بلاد الانكليز وقال ماملخصه (ان الاحياء اذا كانت تتحول وترتقى بنواميس طبيعية فلم يبق حينئذٍ احتياج الى .. الى غير ذلك وقد رأيت الشارح كيف يجعل الخالق منافياً للسبب الطبيعى ويسعى في تفسير ظهورها على سبيل طبيعى ويتوسع بمذهب التسلسل لئلا يحصل فعل الخالق مرة المستلزم لجوازه مرات . وانا اعتذر الى القارى ان كان من اهل الدين من بيان دفع هذه الشبهة اذ الذى سأذكره ليس مما يخفى على صغار اطفالهم وغفلة

(١) اسم كتاب له

عوامهم ولكني اريد بيانه لهؤلاء الذين لايعرفون واضحات
الدين ولا المعلوم من عقايد معتقديه كانهم لم يروا احداً من
اهله ولم يسمعوا كلمة منه . فنقول وجود الاسباب الطبيعية
مما لاينكره احد من العقلاء فضلاً عن اهل الدين ولا
يخالف فيه احد السوفسطائيين والشبطيقيين وهم ان عدوا
من العقلاء فاهل الاديان منهم برآء .

وقد عرّفناك في اول الكتاب ان المؤمنين لاينكرون
وجود الاسباب بل يستدلون بحسن ترتيبها وبديع
انتظامها على وجوده وبديع حكمته وعظيم قدرته ولهذا
تراهم من احرص الناس على معرفتها والبحث عن خباياها
في خفاياها فقد علموا انهم لايتقدمون فيها خطوة الاويرتقون
من المعرفة درجات ولا يتجلى لهم سر للطبيعة الا وللنور
المقدس فيه تجليات . هذه صعاب مسائلها فهل
ريضتها غير افهام اهل الدين وهذه ابكار نواميسها
هل افتضت بغير افكار المؤمنين . هذا ناموس الجاذبية
العامة ونواميس النور وغيرها هل رفع الحجاب عنها غير
(نيوتن) وهو الملقب باللاهوتي الفاضل صاحب الرسائل
الاربع الى الدكتور (تنبلي) وموضوعها دحض اراء الماديين .

وهذا دوران الدم في البدن هل اكتشفه غير (هارفي) وهو
القائل ماشرّحت حيواناً الا نظرت فيه شيئاً جديداً ورايت
ادلة جديدة على العناية الالهية تعالت قدرته وهذا (باستور)
صاحب التجارب في الاختمار يقول في جواب من قال له كيف
تقدر يادكتور ان توفق بين اكتشافاتك العلمية والتعاليم
الدينية .

اعلم ان دروسي بدلاً من ان تزعزع اعتقادي جعلتني في
ايماني كالفلاح البريطاني (١) ولو كنت اكثر تعمقاً في العلم لربما
كنت اصير بايمان الفلاحة البريطانية . وهذا . وهذا مما لو
عددناه لامثلنا مجلداً ضخماً والاستطراد لايسمح لنا
باكثر مما نقلناه واهل الدين لم يعترفوا بوجود الخالق جلت
قدرته الا بما عرفوه ضرورة بالادلة القطعية من حدوث المادة
وامكانها وضرورة انتهائها الى واجب بالذات وادلة كثيرة
لاتحصي ومنها هذه العلل كما عرفت بحيث يعد عندهم
من البديهيات ويحسب المنكر له مصاباً في وجدانه ولم يستدل
احد فيما اعلم على ذلك بوجود حوادث لايعرف لها علة طبيعية
وان ذكره احدهم فلا شك انه ليس عنده هو الدليل الوحيد

(١) مثل فرانسوي يضرب لشدة الاستمساك .

الذي يعتمد عليه .. فان تمت تلك الادلة (وقد تمت) فلا تضرهم معرفة العلل الطبيعة ولا تضرهم فلسفة النشو بل فيها من النفع لهم اضعاف ماقدروا من الضرر منها عليهم .

واهل الدين اذا وصفوا الله سبحانه بانه خالق الشيء فلا يريدون به انه اوجد بمحض قدرته الكاملة الابتدائية ولم يوسط فيه غير ارادته المقدسة بل يريدون به انه اوجد بارادته واختياره سواء اوجده بلا اسباب طبيعية اصلاً كما في العلة الطبيعية الاولى وهي المادة او القوة بزعم هؤلاء اوبتوسط الوف من الاسباب المرتبة والمركبة كما في الاحياء الموجودة الآن وكذلك اذا قال احدهم كنت مريضاً فشفاني الله اوفقيراً فاغناني الله لا يخص هذا القول بما اذا كان شفائه عفواً بلا شربَ الدواء وغناه بصرة في قوصرة نازلة من السماء بل يقوله وان تجرع الدواء مراراً مراً وقطع الارض للتجارة طولاً وعرضاً .

وهذا ليس محض اصطلاح من اهل الدين بل هو من الحقيقة التي يعرفها كل احد ويكرره كل يوم في مجارى كلامه فيقول احرقت الثوب وهو لم يفعل شيئاً سوى انه جمع حطباً واضرمه ثم القى الثوب فيه فاحرقتها النار ويقول

قتلت الصيد وهو لم يزهق روحه بصرف ارادته بل صوب بندقته نحوه واطلقها والبندقة مزقت احشاء صيده وهكذا ولا اريد بهذا المثال ان افعال الله سبحانه كافعالنا من جميع الوجوه وان استخدام الله سبحانه للاسباب الطبيعية كاستخدامنا لها كيف والفرق بين الامرين عظيم والشوط منهما بطين وليس المقام مقام بيان ذلك وانما اريد التمثيل لما ذكرنا من ان توسط تلك الاسباب لا تنافي نسبة الفعل الى الفاعل . وانه اذا كنا ننسب الافعال الى انفسنا باستخدامنا قوى لم نخلقها ولم نعرف حقائقها فكيف بمن اوجدها لهذه الغايات وعلم بها قبل وجودها وهو القادر على ما يريد وان لم يوسطها . وما ضر لويس (بخنر) ان يتعلم واضحات الدين اولاً ثم يعترض على اهله ويتهكم بمعتقداتهم . فهب انه لم يمكنه الاختلاف الى كنائس (المانيا) لأن خدمتها لا يأذنون له في الدخول فيها ولا سؤال (الاكليروس) لأنهم يكرهون معاشرته ويرغبون عن مكالمته ولكن كان من الممكن له ان يسئل احد اطفال المؤمنين ويقول له من رزقك اليوم ليقول الله سبحانه ثم يقول له كيف ليقول له انه تعالى اهدى ابي للتجارة فقدر له الربح فحصل دراهم

واشترى عيشاً واوقع حبي في قلبه حتى جعلني شريكه في
زاده بل آثرني على نفسه ثم يقول له من خلقك ليقول له الله
وابي فلان . ولو فعل ذلك لعلم ان (دارون) جرى على اصطلاح
اهل الدين فقال نفخ الخالق فيها روح الحيـاة ولا يلزم من
كلامه انكار السبب الطبيعي للحي الاول ولا من التسليم
به اقامة المعجزة مقام الناموس الطبيعي وان اطلاق الخالق
على جميع الاحياء لا مانع منه بل يمتنع غيره عند (دارون)
(ان كان كلامه هذا على وفق معتقده) ولا ينافي ذلك ما
يذكره من اسباب ظهوره . ولعلم ايضاً انه لا معنى لقوله
بعدذلك (بقي علينا ان نعرف مصدر هذه الكريات الاولى)
اي اصل الصور العضوية الاولى التي يقول (دارون) ان
الخالق نفخ فيها نسمة الحياة تولدت ذاتياً طبيعياً ام خلقت
واودعت نواميس النمو على ان خلق الصورة اذا صح مرةً
فلا مانع يمنع من تكراره مرات متوالية الخ .

اذا التولد الطبيعي لا ينافي الخلق وليس ذلك نقصاً في مذهب
(دارون) بل هو غاية كماله اذ لم يقف عندما انتهى تخرص
هذا واصحابه وكذلك ما ذكره في مبدء المقالة الثانية من
ان الاعتراض اللاهوتي لم ينفه (دارون) صريحاً بل اراد

تقليل قيمته بجعله الخالق محصوراً في بضع اصول قابلة كل
تغير لاحق من نفسها اولى بحكمة الخالق وعظمته ولا حاجة
الى القول ان مثل هذا التعليل ساقط من نفسه . وكان في
امكان (دارون) الاستغناء عنه لولا انه راعى حاسات
مواطنية الدينية لأن قاعدة مذهبه الصدفة العمياء وكله
قائم على افعال طبيعية لا شيء من القصد فيها الى آخر مالا
ثمرة في نقله . فتراه يرمي (دارون) بانه ذكر خلاف معتقده
وان فلسفته تنافي التوحيـد اما مذهب (دارون) فمما لم
نتحققه وقد قدمنا في اول الرسالة ان اقصى ما ظفرنا من النقل
عنه التحير ورأينا نقل الاقرار بالتوحيد عنه ايضاً وهـذا
امر لا يهمنا ولولا ان (بخنر) متهم في مثل هذا النقـل
لقلنا هو اخبر به منا واما فلسفته فلا تبنى على الصدفة العمياء
كما اوهمته قلة بصيرته بل على التوسع في معرفة الاسباب
المقربة الى معرفة مسببها وان امرء يزعم المنافات بين قيام
المذهب على افعال طبيعية وبين القصد ولا يرى من نفسه
القصد في جميع افعاله مع بنائها على افعال طبيعية لعجزه
عن المعجزة لا ينبغي تضييع ثمين الوقت بنقل كلامه ورده .

وهذا الرجل كما انه شديد الولع بارجاع اصول الاحياء
الى صورة واحدة لظنه ان ذلك ممايضر بالدين كذلك
شديد الحذر من تعدد الاصول لظنه ان ذلك ملازم للقول
بالتوحيد وهذا جهل آخر منه فقبله كانت ملاحدة مثله لا
يعرفون النشو والارتقاء ويقولون بخلق الانواع ويختلقون
لها اسباباً طبيعية وهم يشاركونه في التعطيل ولم يرد عليهم
اهل الدين في غابر الزمان بتعدد اصول الانواع بل بما
يردون به القائل بوحدته الآن وبالجملة تعدد اصول الانواع
واتحادها قضية علمية محضة لا مدخل لها في الدين (الا فيما
عرفت) كمسائل الهندسة والحساب وايهما كان فوجود
الصانع الحكيم لخلقها لازم لزوم النور للظل والوجود للعدم .
ثم ان (بخنر) لما زعم ان قول (دارون) يجعل المذهب ناقصاً
وربما نقضه كلف نفسه التوسع بمذهب التسلسل الذى
وضعه (دارون) وجعل العالم العضوى مشتقاً من صورة
واحدة بسيطة جداً والجأته خاتمة البحث عن اصل تلك
الكرية الى مسئلة التولد الذاتى ولكنه خرج عنها بلا
محصل بل اضطر اخيراً الى الاعتراف بان الامتحانات لا
تؤيد حدوث التولد الذاتى . ولكنه جرى على ما عرفناه

من عادته وعادة اصحابه مهما اعوزتهم الحيل وهو تعليق
الامل بالمستقبل وعدم موافقته للاحوال الارضية الآن
ونحن لا نمل القراء بنقل كلامه وانتقاده وانما نذكر كلمة
من هذه المسئلة لأنها مسئلة مهمة وهى المحور الذى يدور
عليه علم الاحياء اليوم كما يقول (بخنر) وكانت تعد من
اهم المسائل في القرن الماضى كما يقول غيره . وقد تداولوها
بصبغة دينية وقد قامت لأجلها حرب شعواء بين المؤمنين
والملحدين وهى ايضاً علمية محضة . ونحن نسمعك اولاً
حديث تلك الحرب ثم نبين انشاء الله ان الدين بمعزل عنها
وعلى الحياد فيها وفي امثالها .

***

زعم الماديون ان في امكان التولد الذاتى امكان الاستغناء
عن الواجب فاصروا على ذلك وقاومهم اهل المذهب الروحى
اشد مقاومة وطال بينهما الخصام الى ان استتب الفوز لاصحاب
مافوق الطبيعة في اكاذيمية العلوم الفرنساوية بتجارب زعيمهم
(باستور) فدحر الماديين ونكصهم على اعقابهم حمر الاخارع
واصل ذلك انه كانت المذاهب مختلفة في سبب الاختمار الى
ان قام (باستور) فاثبت انه تغير كيماوى يسببه وجود احياء

ميكرسكوبية تنتشر وتتكاثر بمساعدة بعض عناصر
الوسط المستعد للاختمار فظن الماديون ان تلك الاحياء
تتولد في نفس الوسط المعدلة بسبب كيماوي فصالوا على اهل
الاثبات قائلين . اذا كان من الممكن ان يتولد من المادة
الفاقدة الحياة احياء بسيطة التركيب يرجح ان تكون هذه
الاحياء قادرة على ان ترتقي بالتدريج تبعاً لناموس النمو
الطبيعي . وعلى هذه الكيفية تحولت الاحياء المتناهية
في الصغر الى حيوانات اكبر واكمل الى ان بلغ اقصى ما نراه
مع طول الزمان وربما كان منها اصل الانسان . وانكر
ذلك عليهم خصومهم واحتدم النزاع وطال الجدال فلما رأت
الاكاذيمية الفرنساوية ان المشاحنة قد طالت بين الفريقين
ارادت قطعها فجعلت لمن يأتيها بالبرهان القاطع جائزة قدرها
الفان وخمسمائة فرنك . وكان الطبيعي (بوشيت) وهو اعظم
انصار التولد الذاتي مشغولاً طول هذه المدة بتجارب ظنها
اقوي دليل لمذهبه ولما طالبته الاكاذيمية باظهار تجاربه اتى
بقنينه وملاها ماء حرارته مأة درجة وبعد ان احكم سدها
قلبها وغطسها في دن مملو زئبقاً ثم اخرج السدادة واخذ
يدخل الى جوف القنينة باقة تبن مع قليل من الاكسيجين .

ولم تمض ايام قليلة حتى ثبت وجود الاختمار رغماً عن حرارة
التبن التي كان يجب ان تقتل الجراثيم فاخذ انصار التولد
الذاتى ينادون بالغلبة والانتصار لكن لم تدم لهم مدة الفرح
بتجربتهم لان (باستور) اعاد التجربة فقرر ان الجراثيم
كانت تدخل في القنينة بملاسة الزيبق المعرض للهواء واراد
ان يسد باب هذا الخلل فبعد ان ادخل المادة القابلة للاختمار
القنينة سدها بسدادة يخترقها انبوب بلا تبن محمى حتى لا
يدخل الهواء القنينة الا وحرارة الانبوب قد اهلكت
الجراثيم التى ينقلها . فلم يتم الاختمار واعيدت التجربة
مراراً فكانت النتيجة واحدة وبما ان حرارة الانبوب كما
تقتل الجراثيم قد يقتل بعض العوامل التى باختلاطها مع
الهواء ربما يكون ضرورية للاختمار اعيدت التجربة بانبوب
اوسع لكنهم حشوه بقطن حتى اصبح شبيهاً بمصفاة .
ومع هذا لم يحدث الاختمار لان الجراثيم كانت تجتمع في
كتلة القطن فكانت هذه التجربة ابتداء نجاح (باستور)
واستفزت تجربته اعجاب الاكاذيمية فاعلنت نيل (باستور)
الجائزة وفوزه على مذهب التوالد الذاتي . ولا تسل ما جرى
بعده على (بوشيت) المسكين حرم الجائزة وحرمانه سمعة

الاكتشاف اعظم خجل لدى خصمه وخجله لدى الماديين
الذى علقت امالهم بتجاربه اكثر . ولعل الى هذه الحرب
العلمية اشار الشارح فيما تركنا نقله من كلامه ونقل عن
(جستاف جيجير) ان اصحابه الطبيعيين ضاق عليهم مجال
البرهان حتى اتوا على بينات يسخربها (١)

ولعمرى ان (باستور) وان رمى الالحاد بقاصمة الظهر
وابقى له من الذكر ما لاينسى مدى الدهر ولكن هذا النزاع
بمعزل عن الاثبات والتعطيل كما فرغنا من بيانه وارشدناك
الى جلية الامر وتبيانه . ومن مضحكات العلم بل مبكياته
ان جماعة ينتمون الى العلم بنوا اهم مسائله واشرف مقاصده
اجمع على ان ابتداء خلقة تلك الحيوانات في داخل القنينة
او في خارجها . فان كان فيها يثبت التعطيل ويستغنى عن
الخالق تعالى وينهد ركن الاثبات . كان القدرة الكاملة
التي وسعت كل شئ لاتقدر على الدخول في القنينة ويمنعها
التعقيم العلمى ولايكون في انتظام اعضاء تلك الحيوانات

---

(١) وفي بعض المجلات العلمية نقل تجربة في توليد الاحياء في سوائل
عن الدكتور (بستيان) اجراها في الجمعية الطبية ببلاد الانكليز وهى
قريبة مما نقلناه عن (بوشيت) ونقل ايضاً انكار (تندل) و (باستور) عليه .

ووجود لوازم حياتها شواهد على انها صنع قادر حكيم
(لم) الرقيقة التى تكسر البراهين القوية الدالة على امكانها
وان كان ابتداء خلقها فى خارجها تبقى ادلة الاثبات سالمة
ومداخلة القدرة الالهية لايجادها لازمة . وانا اكرر عليك
ما نبهتك عليه (واقول) ان اهل الدين يقولون ان الكون
اجمع بما فيه من الشموس والاراضى والاقمار وما فيها من
الجماد والنبات والحيوان ممكن مخلوق اوجده البارى
عن قصد واختيار وكل ما يوجد فهو بخلقه وفعله ان اوجده بلا
سبب طبيعى فهو القادر على ما يريد وان اوجده باسبابه فهو
الموجد له ولاسبابه ولكن جرت عادته المقدسة غالباً على
الثانى لانه اتقن للصنع وادل على الحكمة وفيه تمام المصلحة
وحفظ النظام وارتباط بعضه ببعض وغير ذلك مما لايمكن
احصانه وستسمع طرفاً منه انشاءالله تعالى في المقالة الاتية ولايخص
احد منهم صفة خالقيته بما لم يكن له سبب طبيعي وكما انهم
لم يعترفوا بوجوده تعالى لظنهم عدم كفاية الاسباب الموجودة
في الكون بل بهذه الاسباب وحسن انتظامها وبديع ترتيبها
عرفوا عظمة خالقها واضطروا الى الاعتراف بوجوده فكلما
كانت اتم واكمل كانت على معتقدهم ادل . فاذا ليس التولد

الذاتى الاخلقه تعالى للحى بعـد ايجاده المـدات له وجمعه
الاسباب اللازمة التى قررها لوجوده ولافرق بينـه وبين
الخلق من الجرثومة او البيضة اصلا فكما تفننت القدرة
الكاملة في ايجاد النبات فجعل بعضه يوجد بواسـطة الـبزر
وبعضها بواسطة البراعم بطرقها العديدة كذلك تفننت فى
ايجاد الحيوان فجعل بعضه يوجد من بعضه بطريقة تقسيم
الحى نفسه الى شطرين او باحداث زيادة متصـلة به كما في
الحيوانات الدنيا وبعضها يخلقه من بيضة تفقس خارج المبيض
كما في الطيور اوداخله كما فى الحيوانات اللبونة وبعضه بالتولد
الذاتى باصطلاحهم . وسمعت قديما احد اعاظم اهـل العلم
يقول ان التولد الذاتى ادل على التوحيد واظهر في الاحتياج
الى الخالق وانما اطلت الكلام مع انه من الواضح الـذى
لايحتاج اليه لان مسئلة التولد الذاتى من اعظم مايشتغل
بها اهل العصر فلا يبعد ان يتم لهم بطريق مالم يتم (لبوشيت)
فتعود الحرب جذعة ويستظهر هؤلاء بما لا حجـة لهم فيه
لانه كما عرفت ليس من الدين في شئ وانما هى علمية صرفة.
والتولد الذاتى امر معروف من قـديم الزمان وكانوا
لنقصان تجاربهم يعدون منه بعض العقارب والفار واقساما

من الذباب وسلابيح الماء ونحوه والالحاديس من مخترعات
هذا العصر ولا بمذهب لايوجد فى غير الغرب ولم يستظهر به
احد من الملحدين فيما نعلم ولاخص غيره بالاستدلال احد
من المؤمنين كيف وهم اكيس من ان يمنعـوا التـولد
الذاتى لعلمهم ان تناسل الاحياء لابد ان تنتهى اليه والا
لزم التسلسل الذى هو ضرورى البطلان عندهم والمجوز
له من هؤلاء لامنهم وان كان لابد منه فما يمنعهم من القول
به الان ان سددته شواهد الامتحان (١) فاجعل ماذكرناه
نصب فكرك واعجب من الملحد المصرى كيف يقول لم
يكن للمؤمنـين الاخلق الاحيـاء وقـد ثبت الان ان
الكهربائية تقدر ان تخلق احياء كاملة. وانظر الى اى درجة
بلغ الرجل من الجهل بمراد اهل الدين . ولقد كررنا القول
في ذلك الى ان سئمنا ومل السامعون . والقـوم بعدهم في
ضلالهم يعمهون . فكم ابنا عن ان المؤمنين يقولون بان
الله تعالى خالق الخلق جميعا باسباب خلقها ونواميس قـد

(١) وقد ذكر الشيخ في آخر الفن الخامس من طبيعيات الشـفاء كلاما مـهما في امكان وجود الاحياء بالتولد دون التوالد وقـربه احسن تقريب وازاح عنه كل شبهة

سنها واجري بحكمته عليها الاشياء مع قدرته على ما يشاء كيف يشاء . وما الكهربائية التي نسب الخلق اليها الا كسائر الاسباب والمعدات للاحياء الاخر . فان كان الرجل لا يرضيه الا خلق الشيء بلا سبب موجود ولا ممد سابق ففي الاحياء الكاملة العالية غنى له عن هذه الاحياء الضعيفة الدانية التي لم يثبت وجودها الى اليوم فيما تعلم . اذ الاحياء العليا لا توجد الا من بيضة يلقحها الرجل وتشتمل عليها رحم الانثى الخ . فهلا قال ان تلك الاسباب قادرة على خلق احياء تامة . وان كانت الاسباب غير منافية لمذهبهم بل كانت من اقوى ادلتهم فما هذا الذي ثبت الان مما لم يكن معلوماً فيما سبق من الزمان . وما هذه القدرة التي اختصت بها الكهربائية من بين سائر الاسباب .

وما جهله هو الواضح باعظم من خطائه الفاضح في قوله — لم يكن للمؤمنين الا خلق الاحياء — كانه ليست في الكون شموس مضيئة ولا اقمار منيرة ولا كواكب درية ولا . ولا . اما درى لا دري ان تلك الكهربائية التي زعم فيها ما زعم لا تقصر عن تلك الاحياء في الدلالة على ما يذهب اليه اهل الايمان بل ضلالتها اتم واعظم .

هذا تمام انتقاد المقالة الاولى من شرح (بخنر) مما اهملنا التعرض له وتركنا سواه على ان مجال النقد فيه واسع بل لا بحث فيها الا وفيه مباحث ولكن فيما ذكرنا كفاية لما اردناه من البحث في جوهريات فلسفة التحول وتعليله على الرأي الدرويني . وتركنا نقد سائر مقالات كتابه لان اكثر ما فيها يتراوح بين التهكم والاستهزاء بالاديان وبين الاسهاب في تراجم الماديين ولئن يكون كتابه شعراً منثوراً في هجاء الدين او معجماً في تراجم الماديين اولى بان يكون شرحاً لمذهب (دارون) . والقليل الذي يناسب ما قصدناه فانا نتعرض لنقده في المواضع اللائقة به ان شاء الله . وانما نذكر هنا سائر الوجوه التي يمكن التعويل عليها في اثبات التحول والارتقاء فان (بخنر) ترك بعضاً واجمل القول في بعض آخر ونقول بما يستند فيه الى ما مر في بحث اصل الانسان من وجود هذه النواميس في الكون ضرورة واللازم من وجودها وقوع التحول والارتقاء بها ويقال في الجواب ان هذه المقدمات ان تمت وسلمت من الانتقاد لا يثبت بها سوى امكان وقوعهما والممكنات في عالمها غير عزيزة لانها تتوقف اولاً على

اتحاد اصول الاحياء في اصل الخلقه اوقلتها وهذا مما ينازع
فيه خصوم هذا المذهب واثبات ذلك بهذه المقدمات مصادرة
واضحه وتتوقف ثانياً على ان يكون عمر الارض بمقدار
يمكن ان تعمل هذه العوامل البطيئة باعترافهم عملها والمعلوم
من عمر الارض لايسع ازيد من هذه الاختلافات التي
نشاهدها بين اصناف نوع واحد وما في مذهب (دارون)
من تقدير عمر الارض بمقدار يسع حصول هذه التنوعات
ليس بامر اقام عليه الدليل بل هو فرض اخر رمم به ماوهى
من فرضيته فقال مانصه : (ان صح مذهبي فلا بد ان الزمان
الذى مضى قبل تكون الطبقات الكمبرية السفلى والذى
تجهله كان طويلاً جداً) فهوى كما ترى غاية همه ان لايثبت
خصومه قصر عمر الارض فيقوض مابناه ولا يطمع في ان
يثبت طوله فيكون دليلاً له . ولكنه لم يسلم من هذا
النقض فان (طمسن) بين (ان يبس قشرة الارض لايمكن
ان يكون قد تم في اقل من عشرين مليون سنة ولا اكثر
من اربعمائة مليون سنة وانه يقتضي ان يكون بين ثمانية
وتسعين مليون سنة وبين مأتى مليون سنة) و (دارون) لم
يزد في ملاحظته على تحديد (طمسن) على قوله (ان الفرق

بين هذه الحدود يدلنا كم هى الادلة الضعيفه) ثم التجأ الى
فرض اخر ليدفع عن فرضيته الاعتراض فقال (يمكن ان
الارض كانت في اطوارها الاول معرضة في احوال الطبيعة
لتغيرات اسرع واشد مما هى الان فحصلت تغيرات اسرع
كذلك في الاحياء التى كانت تقطن سطحها في هذه الازمان
البعيدة) وصاحب الحقيقة معرب شرح (بخنر) وان قال
اولاً ان اسخف الاعتراضات ماتعلق بالزمان ولكن لم يقطع
يراعه الذى يسيل براعه بضعة عشر سطراً حتى قال (هنا
اعتراض صعب) وذكر تحديد (طمسن) المتقدم ثم قال
والحق يقال ان مذهب الانتقال وان كان يعلل به اشياء كثيرة
تفهم بدونه لكن لاينكر انه ناقص كما بسطه (دارون) .
والخصوم هؤلاء معهم مجال واسع في المناظرة في هذا
النقض حتي التجأ بعضهم الى التحول الفجائى ولم يبعد عنه
(دارون) كثيراً حيث التزم باسراع النشو ولايهمنا امرهم
وقعوا في احبولته اوافلتوا منها وانما اردنا بيان ان الاستدلال
على وقوع التحول بوجود النواميس لايتم الا بطول الزمان
وهو مما لم يثبت ببرهان .
وهذا الرأى وان سماه بخنر (اكتشافاً) وضرب

ضرب شرحه عـلى قبشارته بـل زاد عليه نغمة ادعاء انه من الاوليات ولكن لاتزال تسمع من مبدعه ومخترعه لفظ ـ ان صح ظني ـ وشبهه ولايتجاوز زعمائه به حد الافتراض وقد صرح به (بروكا) من اكابر الجاحدين والتابعين (لدارون) في خطاب له القاه في المحفل العلمي (بباريس) ـ بل قال (كروبتكن) ان (دارون) لم تبق آرائه على ما كانت عليه بل تساهل فيها عند ما اخذ يبحث في تنوع النبات والحيوان بحثاً مسهباً وارتاب في كفاية الانتخاب الطبيعي الخ ـ و (قال) في موضع آخر ما هو ادهى من ذلك وامر وهو ان (دارون) لم يكن يعتقد الانتخاب الطبيعي وانما اراد ان يسد به باب القصد عـلى القائلين به يعني المؤمنين ـ وهذا لفظه ـ رأي (دارون) ان (لامرك) ذهب الى ان في الاحياء ميلاً الى التقـدم من نفسها وان عند الحيوانات شيئاً من الارادة يساعدها عـلى الارتقاء فخشي ان يفتح بذلك باباً للقائلين بالقصـد فيقفون في سبيل العلم الخ .

ان كان ذلك من قصد (دارون) فقد ضل سعيه وما تمت الا عليه حيلته لانه بدلاً من ان يسد باباً واحداً للقصد

فتح له ابواباً كثيرة كما عرفناك في المباحث السابقة ولكن هل منصف يسئل هذا الملحد عن العلم لماذا ينافيه القصد وفي اي شيء يعارضه حتى يكون القول به وقوفاً في سبيل تقدمه ولماذا يتحمل العلم من اصحابه كل تخرص وتعسف كالقول بان الطفل يصنع عينه في رحم امه وميـل الثور للانطاح بسبب قرونه وغيرهما مما عرفت بعضاً منه ولايتحمل القول بالقصد في خلقه هذا الكون مع بقاء جميع النواميس الطبيعية على حالها وعدم معارضتها في شيء من مقتضياتها .

***

ومن الطريف في هذا الرأي انه كما يمكن ان يعلل به القول باتحاد اصول الانواع او قلتها كذلك يمكن القول بعكس ذلك والتعليل به ايضاً . فيقال ان اصول الاحياء كانت في بدو الخلق افراداً متباينة باقصى ما يكون من التباين وعـدم التشابه . فلم يزل كل حي يخلف نسـلاً يشبهه بناموس الوراثة ويباينه بناموس المباينة لكن بما يقربه الى فرد آخر . فلم تزل تلك المباينات مع الاجداد تزيد المشابهات مع ساير الافراد وتنازع البقاء يلاشي الضعيف والطبيعة تنتخب القوى حتى صارت التباينات التي قلنا

انها مع الغير مشابهات ثابتة فتألفت منه الانواع الموجودة .
فالقولان يشتركان في ان كل حي يخلف نسلًا يشابهه
والتباينات تبعد الشباهة بين المولود والمولود منه لكنها
على الثاني تقرب بعض الافراد الى آخر وعمل الانتخاب
الطبيعي على القولين واحد فالاحياء على الثاني كلما كانت
اشد مشابهة كانت ابعد اصولاً . فماذا يرد هذا الاحتمال
فهل فيه شيء سوى الاستبعاد الذي اول الشرط في هذه
الفلسفة ان لا يهتم به ولا يلتفت اليه . فما القول بان
اجداد الطيور الصافات في الهواء كانت تسبح في اعماق
البحار وتموت اذا بقيت ساعة في الهواء خارجاً عن الماء .
باقل بعداً من القول بان الثور اقرب الى الهر من الاسد
وانه وان كان شبيهاً بالجاموس لكنهما لا يجتمعان في جد
وله شواهد على مذهب هؤلاء فالحية مثلًا تعد الآن من
جنس الذبابات ولا يجتمع معها في الاصل بل اصلها من
ذوات الارجل وقل مثله في الحيوانات المنحطة التي
يذكرها (بخنر) وغيره فانها الآن تؤلف جنس المنحطات
وهي بعيدة في الاصل منها وهذا شرح ما تقدم في بحث
اصل الانسان من ان للخصم ان يجعل التباينات اصلية

والتشابهات عارضية .

وهذا الاحتمال وان لم اجد احداً قال به في اصول الانواع
ولكنه احد القولين المشهورين في اصل اللغات . قرئت
في مقالة مقتطفة من مقالة لاحد العلماء الاميركيين الذين
يوثق بهم ما لفظه وعند العلماء مذهبان شهيران الاول ان
لغات البشر متشابهة وهي كلها من اصل واحد وهذا
الاصل قد تفرع وتنوع فتولدت منه لغات البشر المختلفة
فما اللغات سوى لهجات من لغة واحدة ولكنها بعدت
عن الاصل كثيراً وتغيرت بالزيادة والنقصان والنحت
والحذف حتى بعدت بعضها عن بعض هذا البعد الشاسع
وتعذر رد بعضها الى بعض لفقد الحلقات الكثيرة من بينها .
المذهب الثاني انه كانت للغات البشر اصول مختلفة
بحسب عدد طوائفها وانه مع الزمان اقتربت هذه اللغات
بعضها من بعض فتمازجت وتشابهت بتمازج اهلها وتشابههم
الخ . وعند الكاتب ان المذهب الثاني اقرب الى الصحة
واقدر على حل المشكلات من الاول .

والمذهب الاول كما ترى يشبه مذهب القوم في اصل

الانواع والمذهب الثاني يقرب من الاحتمال الذى ابديناه
ومن المقرر عندهم قياس اللغات بالانواع وجماعها خاضعة
لناموس التحول كما فصله (بختر) في المقالة الثانية وغيره
وافرد (شليخر) ذلك بالتصنيف .

مذهب (دارون) وعلم اللغات اذاً فما يذهب اليه في
اللغات يمكن الذهاب اليه في الانواع . فعسى هذا الاحتمال
ان يصادف الحظ يوماً في طريقه ويصبح قولاً لبعض فلاسفة
الغرب مؤيداً بشواهد اختيارية فيعود قولاً غريباً يجب
اتباعه بعد ما كان احتمالاً شرقياً يجب رفضه لاغرو فهذا
العصر ابو العجائب .

***

ورايت في كلام منقول عن (دارون) في غير هذا المقام
ان الطبيعه تعلمنا ان الطفرة محال ولا لمه اواحد تابعة يزعم ان
وجود الانواع العليا بغير النشو من الطفرة وقد ذكر الشارح
في رد قول (ليل) (وهو تولد الانواع حتى العليا رأساً تولداً
ذاتياً في كل الادوار بطرق غير معروفة من طرق الطبيعة)
ما نصه : (ولا يخفى على العارفين بالعلوم الطبيعية ما في هذا
القول من الاضطراب اذ لا يفهم كيف ان نوعاً حياً كالاسد

والفرس ونحوهما يوجد دفعةً واحدةً بدون استعداد سابق
بفعل القوى الطبيعية المعروفة وهذا ان لم يمكن تمسكاً بالطفرة
فلا يبعد عنها كثيراً والجواب عن الالزام بها واضح لدى
من له ادنى المام بالعلوم العقلية اذ الطفرة لا يتحقق معناها
الا عما كان في طريقها عقلاً اوعادةً كما لوقطع الجسم من
المسافة الف ذراع قبل ان يقطع خمسمأة اويصير ثمر الكرم
عنباً قبل ان يصير حصرماً وليس منها تحول النواة نخلاً
قبل ان يصير سرواً اوالشبل اسداً قبل ان يصير سنوراً .
وكون هذه الانواع الدانية في طريق العالية هو اول ما يمنعه
خصمه وينازعه فيه . اما اعتراض (بختر) على (ليل) فليس
يجيد حتى عند من يقدر الطبيعة باكثر من مقدارها ولا يعرف
خالقها وجاعل نواميسها اذ الممتنع لديه وجود شئ بغير قوى
الطبيعة . وهذا لا يقول به (ليل) بل تراه يصرح بانها قامت
بطريقة غير معروفة من طرق الطبيعة واما كون تلك الطرق
مما يعرفها (بختر) فليس بلازم ولا يمكن الزامه به بعد ما يعترف
(بختر) ومن هو اعظم منه كامامه (دارون) بوجود نواميس
كثيرة مجهولة . فلتكن من اثر احدها اوعدة منها وجود
الانواع العالية دفعة كما يقول (ليل) وقد عرفت قريباً ان

(دارون) بنفسه ان لم يقل بمثل قوله فقد التزم بما يقرب منه من النشو السريع بطرق مجهولة . واما عدم وجود الشيء قبل استعداد سابق عليه فهو كما قال اذ من الثابت في فن الحكمة العالية ان العلة لا تؤثر الا بعد وجود ما يلزم في تأثيرها من المعدات فلا يوجد شيء في الكون الا بعد حصول معدات علته وسبق ما يلزم من الاستعدادات في وجوده ولكن من اين يعلم ان الحيوانات الدانية معدات لعلة العالية

وعلى فرض تسليمها لا يثبت به النشو الذي يرومه هذا واصحابه لان من الممكن اختلاف اصول الانواع الموجودة وصدور كل منه عن اصل او كما يقولون عن كرية ذات خلية واحدة تخالف اصل الاخر في الاجزاء التي تتركب منها(١) مقداراً وكماً . ولاجل ذلك الاختلاف او لاختلاف بيأتها التي خلقت فيها والعوارض التي طرأت عليها اثناء ارتقائها وجدت الانواع مختلفة هذا الاختلاف المشاهد فيما بينها .

***

وكثيراً ماترى القوم يعتمدون في رأيهم هذا على علمي

(١) كالكربون والهيدروجين والاكسوجين والازوت

(الجيولوجيا) و(البالشولوجيا) اذ الثابت في الاول بزعمهم ان الارض لم تخلق في بدأ التكوين كما تراها الان بل هي ذات طبقات متتالية تكونت كل منها قبل التي فوقها حتى انتهى الى سطحها الظاهر الذى نحن عليه الان والثابت في الثاني ان الطبقات التي وجدت فيها آثار الحياة واولها (الكمبريه) كلما كانت اسبق تكويناً كانت احياها ادنى واقل تركيباً ولم تظهر الحيوانات اللبونة العليا او ذوات الثدى الا في الدور الثلاثي من الادوار الجيولوجية على ما ذكره (دوكنس) الانكريزي وقسمه الى ستة عصور لايهمنا ذكرها ولم يذكر اثراً للانسان الا في العصر الرابع الذي سماه (البليستوسين) فانه وجد فيه آثار الانسان الحجرى القديم يعنى الذي كان يصنع آلات حاجياته واسلحته من حجارة الظران من غير تهذيب بزعمهم . ولهم في عدد تلك الطبقات ومراتبها وحيوانات كل منها كلام كثير وبينهم في ذلك خلاف عظيم لايهمنا التعرض له .

مسائل هذين العلمين مما تشتاقها الطباع وتلتذبها الاسماع وما اشوق المغرم بالمعارف والمتهافت على العلوم الى معرفة

احوال الارض التي وجد فيها وعاش عليها . ويدفن
اخيراً بها ويعرف من سبقه في الوجود عليها من اصناف
المخلوقات . ولكن مع الاسف اكثر الادلة التي يعتمد
عليها فيهما ضعيفة . وما حجج النحاة بالنسبة اليها الا براهين
هندسية وذكر الشواهد على ماقلت يفضي الى الاسهاب
والخروج عن موضوع الكتاب .

فما عليك ان تصرف فيها برهة من الوقت وردهة من
الزمان وانت ذاكر ما نبهناك عليه في اول الكتاب وفي
بحث اصل الانسان لترى كم فيها من منقولات كاذبة
وحدسيات غير صائبة . اما انا فابني الجواب
على تسليم المسلم فيهما واقول اهم مايرد عليه انه لايثبت
به اهم ركني هذا المذهب وهو النشوء بل يثبت به الارتقاء
الذى يقول به كثير من منكرى التحول اذ اقصى مايلزم
منه انه وجدت في كل دور من الادوار الجيولوجيه
حيوانات ونباتات تناسب عوارضها الخارجية فشدة حرارة
الارض في تلك الادوار لم تكن تتحملها اشجار الفواكه
اللطيفه والارض لعدم تصلب قشرتها ما كانت قابلة لان
ترسخ فيها اصول النخيل الباسقة والهواء لعدم تركبه على

هذه النسبة الموجودة لم يك صالحاً لتنفس الحيوانات العاليه
ونحو ذلك واعتبر الارض الان باختلاف عروضها تجد فيها
مثل ذلك فان الاراضي القطبية لاتوجد فيها الا النباتات
الدنيه لفقدانها الحرارة اللازمة لتعيش النباتات الكامله فيها
بخلاف الاراضي المعتدله من غير ان تكون اشجار المنطقه
المعتدله متحولة عن طحالب المنطقة البارده ..

ورأيت لبعض علماء المسلمين من اهل العصر تشبيهاً اخر . وهو
تشبيه العصور الجيولوجيه بالفصول الزمانية قال اول
ماينبت عند انفصال الشتاء وقدوم الربيع النباتات الدنية
كالطحالب والاعشاب ثم يندرج الامر الى الارقى فالارقى
من النبات كلما تزايد الحر وهلم جرا . واول مايتولد
اوتتفرخ عنه بيوض الحيوانات الدنية كالبكتوريا
والحيوانات المتولدة من العفونه كالبراغيث والذباب ثم يتدرج
الامر الى الارقي فالارقي حتى يصل الدور الى بزور النباتات
والحيوانات العليا وليس شئ من تلك الانواع ناشئاً عن نوع
اخر ومتحولاً عنه وترى الانواع التى تنشأ اولاً تهلك كلما
تقدم الحر لاسباب كونية كتأثير الحر اوسطوة الانواع التى
توجد بعدها ارقي منها وعند انتهاء الصيف لاتبقى غالباً

الا الانواع العليا التى هى منتخبات جميع ماتولد في تلك
المدة وتبقى مما هلكت بقايا في الارض كبقايا الاحافير فهذا
الحال السنوى يكون حاكيًا للحال الجيولوجى انتهى ماقال .
ولعل معترضًا يقول ان من المسلم عند اكثر الطبيعيين ان الحى
لايكون الا من حى فكيف يوجد في كل دور ذو حياة
من غيره . ولايدرى ان مبدء الحياة من المسائل التى لم تحل الى
الان ولعله لايحل الى اخر الزمان ولهذا تجد في كلام كثير
منهم انها وجدت بطريقة غير معروفة والتزم (طمس) الشهير
بمجئ بزوراتها من كرات اخرى محمولة على ظهور النيازك
والشهب ونصب نفسه لذلك سخرية (لربلى) في قصة معروفة .
فاذا كان حل هذه القضية يكفي فيه احد هذين الرأيين في
اول دور ظهر الحياة فيه فاعلينا لو اعدناه عند ابتداء كل دور
فتزور الارض حينئذ تلك الطريقة الغير المعروفة وتوجد الاحياء
اوتمن علينا الكرات المعلقة في السماء مرارًا اخرى بجراثيم
الاحياء فهى عندها وافرة ومطايا الرجوم لنقلها الينا حاضرة .
على انه كما يوجد في هذين الفنين مايؤيد النشو البطىء
الذى يذهب اليه (دارون) كذلك يوجد فيهما ايضًا مايخالفه
فقد ابان (اغاسنر) انه يظهر من احافير الدور الاول ان

انواع الحيوان كانها ظهر كلها في برهة وجيزة لأن تلك الطبقة
رقيقة لم يقتض تكونها زمنا طويلا . وابان (هويت)
الاميركي ان انواع النبات ظهرت دفعة واحدة في العصر
الكربوني . و (اوطوفولجر) يثبت وجود صور ذات
تكوين عال في الطبقات القديمة جدًا للارض وان كان الشارح
في المقالة الرابعة يبعد اصل الحياة الى ازمنة ابعد وادوار
جيولوجية اقدم فرارًا عن حجة (اوطوفولجر) (وان راجعت
تلك المقالة متأملًا ازددت بصيرة في امر هذا الدليل)
وايضًا البالنتولوجية وان تقدمت كثيرًا في هذا الزمان
لكنها في حال يرثى لها من القصور والنقصان . قال (دارون)
(اغنى مجموعاتنا البالنتولوجية ليس شيئًا بالنسبة الى
الحقيقة وهو آت من قسم من سطح الارض صغير غير مستوفي
البحث فيه) وقال الشارح (ص ٦٦) (انا لانعلم شيئًا
عن احافير قارات اسيا وافريقا واميركا واوستراليا الواسعة
وما نعلمه من هذا القبيل انما هو آت كله من قارة اوروبا
الصغيرة) والشارح اعاد القول فيه بابسط من هذا في المقالة
الرابعة .
فاذا كان هذا مقدار البالنتولوجيا فمن يقول انا لا نلقى

غدا في احافير اسيا وجارتيها بقايا حيوانات عالية في ادنى
مراتب الطبقة الكمبرية ولاتزين متاحف اروبا بعظامها
البالية . وليس لهم ان يعللوا انفسهم بالمستقبل ويتركون
هذه الفلسفة عائشة بالامل لانهم ان تمكنوا من الاحافير
فيها وفتشوا جميع طبقاتها ولم يدعوا في جميع القارات
الباقية شبراً واحداً لم يتفحصوا عنه فان في مايمتنع عليهم
من غيرها كفاية لبقاء هذا الاحتمال قال الشارح (ص ٦٦)
(اذا تذكرنا بان ثلثي الارض او ثلاثة اخماسها تحجبها البحار.
وان قسماً كبيراً من الثلث الباقي تغطيه الجبال الشاهقة نعلم
انه تمنعنا عن الابحاث العلمية موانع طبيعية) فاذاً ان تمكنوا
من الحفريات في بقية القارات (واني لهم ذلك) ففيما يمتنع
عليهم من الثلثين والقسم الكبير من الثلث الاخر كفاية
لهذا الاحتمال الذى جعل حياة هذا الدليل على خطر ولعل
احدهم يستعمل القياس ويرى ان عدم وجدانها في اوروبا
كاف للحكم بعدم وجودها في بقية القارات وسائر سطح
الارض ويغفل عما هو مفصل في كتب القوم من اختلافات
القارات بحسب وجود الاحياء وتقدم بعضها على بعض في
صلاحية معيشة الاحياء فيه لاختلاف عوارض الوسط

ومصادفة بعضها للنكبات الجيولوجية حين سلامة البعض
الاخر فاسيا اوافريقا هى مهد الاحياء العالية فلا يبعد انها
لم تهاجر عنها الى سواها الا في عصر الايوسين (او اعصار
الدور الثلاثي الذى وجدفيها اثار الحيوانات اللبونة) وقد
كان في انواعها مايتعيش فيها قبله بقرون طويلة .

هذا ماظفرت كف البحث به من الوجوه التى استندوا
اليها في فلسفتهم والاكتشافات التى عولوا عليها في مذهبهم
ماخرمت منها حرفا بل زدتها حسب مقدرتي توضيحاً وبسطاً .
والحق يشهدلى بانى ماركبت فيه للاعتساف متناً ولا
ارتكبت لدى انتقاده حيفا وجورا .

وانت رعاك الله تعالى بالخيار فان شئت قصرت في القول
بالنشو والارتقاء على الاصناف الموجودة لنوع واحد
وحكمت بارتقاء اعلاها عن ادناها واحسنها عن حسنها او
تجاوزت ولكن قليلا الى الانواع المتقاربة جدا . بمقدار
مايتناوله التحسين الصناعى وتتظافر عليه الشواهد ولكن
مع المحافظة على حد الظن غير متجاسر على دعوى القطع
وقد فهمت اذاً وانا معك مايجب عليك في شرعة العلم ويوجبه
عليك حاكم الانصاف . ولا بد ان تشكرك على صنيعك

الفلسفة ويقرظك ثناء الفلاسفة . وان شئت صدقت جميع
ماينقل لك من احاديث الصور المتوسطة والقصص المختلقة
واغتررت بعدة مشابهات جزئية بين اصناف معدودة
واستفزتك الحدسيات واقمت المغالطات والاقناعيات
مقام البرهانيات . فجعلتها ناموسين عامين يشملان جميع
ما في المملكتين الاليتين — النبات والحيوان — قاطعا
بالقرابة بين النملة والجمل وحاكماً باتحاد اصل التمر والحنظل
راضياً للعلم العزيز عند اهله بان نشوه صفحاته المقدسة
بالوهم والاحتمال ويباح منيع حماه الكتاب الحدس
والخيال — فانت وذاك — ومعك من الشرقيين من اذا احتمل
الغربي شيئاً ظنوا ومتى ظن قطعوا ومهما جزم ادعوا البداهة
واوصلو به مرتبة الاوليات . وكاني بك وان عز عليك
ولا تجد بداً من تصديق كلام لبعض علماء العصر وكتابه
في هو "لا" وهو ممن يعترف له بالفضل معرب (بختر) وغيره
فيما اظن . وهو قوله انهم يوردون من الحقايق مايؤيد رأيهم
بحسب الظاهر ويتقاضون عما ينفيه . ويتخذون المفروض
كامر مثبت ويفسرون الحقائق على مايوافق ارائهم (وقال
ايضاً) ان التسليم بمذهب النشو يقتضي ايماناً بصحته اعظم

جداً من الايمان الذي يقتضيه الدين . والحق ان اهل هذا
المذهب يعتنقونه بالتسليم لا باليقين كانهم عائشون بالايمان
لا بالعيان (انتهى) .

(فصل) نختم به هذا القسم من الكتاب وهو يتضمن
النظر في المراد من الارتقاء الذي هو احد ركني هذه الفلسفة .
قالو ان الارتقاء هو سير الاجسام الحية نحو الكمال . وهذا
صحيح ولكن مامعنى الكمال . رأيت منقولاً عن (سبنسر)
ان الارتقاء تقليل الاعضاء المتماثلة وهذا ان اقتصر عليه فسوف
يعود الانسان بعين واحدة ورجل ويد كذلك وتعود خرافة
الشق الذي قاتل علقمة بن ابي سفيان واذاً يحق لجيل البشر
ان يصرخ بصوت واحد مستعيذاً بالله تعالى من الارتقاء
وداعياً لبقاء نعمة الانحطاط عليه .

ويوجد مانقلناه عن (سبنسر) في كلام غيره ايضاً ويسميه
بناموس التخصيص ويريد به التقليل من الاجزاء المتماثلة مع
الزيادة في شدتها وفي مقالة مقتطفة من كتاب النشو (لجوزف
لاكونت) ان ازدياد عدد الاعضاء المتماثلة العمل في جسم
ما دليل الانحطاط . وان قلتها وصلابتها دليل الارتقاء . ولا
اظن جيل البشر مع ذلك يرضى بهذا الارتقاء ويرى جبر

مصيبته باحدى عينيه ويديه بقوة عينه الاخرى وصلابة
يده الباقيه ورأيت منقولاً عنه وعن غيره انه تغيير المتماثلات
وتحولها الى مختلفات ويقول (جوزف لا كونت) ان الطبيعة
لاتخلق شيئاً من لاشئ ولكن اذا اضطرت الى القيام بعمل
ماعمدت الى شئ موجود وكيفته بحيث يصير مناسباً للقيام
بذلك العمل (لله درها من عمياء غير شاعرة) كانت القفاريات
الاولى اسماكاً اواشباهها فلم تكن تحتاج الا الى اعضاء
السباحة . فلما نشأت الزحافات وصار الاحتياج الى آلة
جديدة عمدت الطبيعة الى آلة السباحة وصيرتها تناسب الحيوان
الجديد . فلما جاء طور الطيور وصار الاحتياج الى الاجنحة
عملتها لها من الاطراف الامامية ومازالت كذلك تبدل وتغير
حتى عملت للانسان يداً عجيبة في مبناها (وهي مع ذلك
عمياء صماء بزعمهم) لكنها لاتفرق عن زعانف السمك
واجنحة الطيور ويد الحيوان فرقاً جوهرياً .

ان كان هذا معنى الارتقاء فاى معنى لارتقاء ذوات الاربع
عن الطيور وارتقاء الانسان عن ذوات الاربع مع اشتراك
الكل في حصول التغير له في عضو موجود قصاراه كل
حصل له التغير بما يناسبه وترى (مارش) يعتبر صغر الجسم

في الانحطاط وكبره في الارتقاء جامعا بينه وبين قلة المتماثلات
ويقول (ان الفرس في الدور الايوسيني كان كالثعلب حجما
وكان له خمسة اعظم وخمس اصابع في اليد وثلاث في القدم
وخلفه في ذلك الدور فرس لم يكن له غير اربعة اعظم واربع
اصابع في اليد . ثم تلاه في الدور الميوسيني فرسان وكانا
اكبر من اسلافهما حجماً غير انه لم يكن لهما غير ثلاث
اصابع في القدم واربع في اليد واحد منها اثري وتبع هذين
فرسان بحجم الحمار) الى ان قال (وفي الدور الرباعي ظهر
الفرس الحديث وله اصبع واحدة هي الحافر) فليعتبر
الانسان بما جرى على الفرس وليحتسب اصابع يديه ورجليه
عند هذه الفلسفة . وذكر كبر الجسم متكرر في كلامهم
فان اقتصر احدهم عليه فلازمه ان يكون الفيل والكركدن
ارقى من الانسان كثيرا وان جمع بينه وبين تقليل المتماثلات
فاجمع انت في الجواب بين الاعتراضين .

***

واعظم مايعتمد عليه عندهم تخصيص الوظائف وتقسيم
الاعمال يقول (بخنر) كلما تخصصت وظائف جسم اى كانت
له اعضاء خصوصية كان هذا الجسم ارقى . فان الحيوانات الدنيا

ليس لها اعضاء خاصة بل جسمها يقضي كل وظائفها بتبادل
بسيط بينه وبين مايحيط به واما الحيوانات العليا فبالضد لها
عضو خاص لكل وظيفه . فالقلب للدورة . والرئتان للتنفس .
والقناة الهضمية للهضم . والكليتان لافراز البول . والدماغ
لوظائف العقل الخ . وهذا مايجعل الحيوانات راقية . ويوجد
هذا بابسط منه في كلام (سنبسر) وغيره مع قياسه بحياة
الانسان السياسيه وماعليه الدول من تقسم الوظائف . اما
الحياة السياسة فحكمها موكول الى اهلها وهي مضايق لا
ادخل فيها واما في الاجسام الحية فلاينبغي ان تعد قلة الاعضاء
انحطاطاً الااذا كانت الاعضاء الموجودة غير كافية لاداء
لوازم الجسم اصلاً اوعلى الوجه الاكمل وعندذلك يكون
تقسيم الوظائف ارتقاء ولكن اكثر الشواهد التي يذكرونها
ليست من هذا القبيل فالحيوانات التي ليست لها رئة للتنفس
لاينبغي ان يعدذلك انحطاطا فيها بعد ماعلم من انه لصغر
اجسامها اوقلة دمها يكفيها من الهواء مايدخل في الدم من مسام
جلودها ولا فائدة اذاً في الرئه لتوجدها القدرة الكاملة
عند المؤمنين والطبيعة لدى المعطلين فهي ان لم تضربها لاتنفعها
بخلاف الانسان ونحوه فانه لغزارة دمه لايكفيه الهواء الداخل

من مسام جلده فلزم لها الرئة وهو ايضا يتنفس بمسام الجلد
ايضاً كما هو معلوم عند اهله فلم يتم التخصص والتقسيم كما
يقولون . ولعل نسبة الهواء الداخل الى دم الحيوانات الدنيا
كل ساعة مثلاً كنسبته فيها الى دم الحيوانات العليا او اكثر
وبالجمله اذا كان عضو واحد يقوم بعدة وظائف من غير نقصان
ولاتقصير بحسب حال الحيوان ومقدار جسمه ولوازم معيشته
فلا يبقى حاجة الى اعضاء اخر تقسم بينها وظائفه بل تكون
تلك الاعضاء حينئذٍ عبثا بل قدتكون مضرة وهذا مما تجل
منه الحكمة الالهية عند المؤمنين والصدفة العمياء عند
المعطلين ووجودها والحال هذه ليس ارتقاء وعدمها لايعد
انحطاطا ولااظن احدا يلتزم بان نقصان الذنب والقرن
والاعصاب التي تحرك اذان البهايم انحطاط في الانسان مع
ان اليد وهي عضو واحد يقوم بوظيفتها مع عدة وظائف
اخر بتمام السهولة واقصى مدارج الكمال ..

فاتضح ان تأملت ان نقصان بعض الاعضاء في جملة
من الحيوانات التي تعد دانية ليس نقصا فيها بل منها مالاحاجة
لها اليه كالخلد التي تسكن تحت الارض ولا يعرض نفسه

النور فانه في غنى عن العين وبعض الحلميات كديدان الامعاء في غنى عن الرجلين ومنها ماعوض عن بعض الاحياء بما يغنيه عن ذلك العضو كما في النمل فان في العقد النتوين البارزين من رأسه (نتنا) كفاية له عن اعضاء كثيرة وهى قائمة بعدة من حاجاتها المختلفة فهى تسمع بلا اذن وتبصر بلا اعين راجع تجارب (مادام سن ادال فيلد) الاميركيه التى نقلتها المجلات قبل اليوم ببضع سنين تجد العجب ومنها ان ارجلها تنقل الي ابدانها نفس التأثير الذي تنقله اذن الانسان الى دماغه وان الروائح تقوم لها مقام اللون وقرناها الذين هما مقام الانف يقومان مقام العين ولعل تأثرها بهاتين القوتين يفوق تأثر الانسان بواسطة عينه واذنيه ولا اقل انهما كافيتان لمقدار حاجاتها وبالجمله لابد للحكم بانحطاط الحيوان من ملاحظة مقدار جسمه وحاجاته واحوال الوسط العائش فيه ونحو ذلك فهل تجد بعد التأمل فيما عرفناك حيوانا ينقصه شئ من لوازمه ام ترى ان مدبر هذا الكون لم يدع نقصا في خلقته ولطفه قد عم جميع خليقته وليس غناء ارقى الحيوانات اللبونه باكثر من غناء ادني الحيوانات الحلزونية وليس فقد النمل العين والاذن الا كفقد الانسان عقد قرني النمل او كاستغنائه

بما يضعه من اللباس عن الشعر والصوف الذى للبهائم وغنائه بالسلاح عن قرني الثور ولقد طال الكلام حتى كاد ان يكون بعضه استطراداً ولكنه نافع جداً ان اعطيت التأمل حقه فيه ثم عرفت الغرض منه . ثم مع الغض عن جميع ذلك فما وجه الاتفاق على ان الانسان ارقي من ساير الحيوانات اللبونه مع مع انهم يقولون اذا شرحنا جسد الانسان لاتجد (اوقلما تجد) عضواً لايوجد في الفار وما معنى ارتقاء الانسان عن القرود وهى تزيد على الانسان بالذنب في اكثر اصنافها والشعر على جلودها .

وقد عثرت (لسبنسر) على كلام مسهب استقصى فيه البحث واعمل فيه اقصى الفكر فلذلك اثرت نقله كما رواه بعض اصحابه ثم اتبعته بما سنح لى من انتقاده .. قال جرى (سبنسر) مجرى (بير) الذى قال ان سلسلة التغيرات التى تغيرها البزرة حتى تصير شجرا والبيضة حتى تصير حيوانا انما هى ارتقاء من التماثل في البناء الى التباين فيه . فاتخذ (سبنسر) ذلك قاعدة لبحثه وقال انه قاعدة لكل ارتقاء اى ان الارتقاء في انواع النبات والحيوان والاخلاق والعادات والعلوم والفنون وكل مايتصل به بحث الانسان مداره كله على

الانتقال من التماثلات الى المتباينات في الجماد دقائقه كلها متماثلة
ذرة الهواء مثل ذرة الهواء ونقطة الماء مثل نقطة الماء وقطعة
الذهب مثل قطعة الذهب ثم يظهر الاختلاف في النبات
ويكون قليلاً في انواعه الدنيا فتتألف من حويصلات متماثلة
ثم يزيد في انواعه العليا فيصير ورق وزهر وثمر ويكون
في الزهر كاس وتاج اعضاء تذكير وتأنيث وفي الثمر قشر
ولب وبزور وهلم جرا ولكن تبقى مزاياه في كل اجزائه
تقريباً على السواء . فاذا قطعت غصنا منه لم يمت بقطعه
واذا غرسته عاش ونما وصار شجرة وكذلك الحيوانات الدانية
كالاسفنج فانها مثل النبات متماثل الاجزاء وقوة التولد
قائمة في كل جزء منها بخلاف الحيوانات المرتقية فانها انقسمت
الى ذكور واناث جرياً على ناموس تقسيم الاعمال لزيادة اتقانها
ولكل عضو شكل خاص ووظيفة تقوم بها . ثم اجرى
هذه القاعدة في العادات والعلوم الخ . مما لا يهمنا البحث عنه
وذكر من امثلته ان الطبيب الواحد كان يتعاطى الجراحة
والطب ومعالجة العيون والاذان وامراض النساء والاطفال
فصار لكل من ذلك طبيب خاص به وقال بعد ذلك . وهذا
هو المراد بالانتقال من التعميم الى التخصيص في الطبيعة

كلها ومن التماثل الى التباين ..

ولما رأى (سبنسر) ذلك قال انه اكتشف ناموس
الارتقاء لكنه رأى لدى امعان النظر ان الانتقال من التماثل
الى التباين لا يشمل كل اساليب الارتقاء بل يشمل مايشمل
من الارتقاء في شيء بل هو انحلال وانحطاط كتولد السرطان
في الجسم وكحدوث الثورة في البلاد . وبعد بحث طويل
عرف الارتقاء تعريفه المشهور وهو — ان الارتقاء تجمع
في المادة يصاحبه تفرق في القوة تنتقل به المادة من شكل
متماثل الاجزاء غير محدود ولا متصل الى شكل متباين
الاجزاء محدود متصل ويتغير شكل القوة التي فيه في غضون
ذلك تغيراً موازياً له

وكتب ايضاً الى (هدصن) كتاباً شرح فيه كيفية
تدرجه في الفلسفة التركيبية وذكر فيه من معنى الارتقاء
ما يقارب ذلك وفيه ان ادنى الحيوانات اجسام هلامية متماثلة
الاجزاء لا يتوقف جزء منها على الجزء الاخر لانه تنفصل
وتبقى حيا وتبقى فيه صفات الجسم كله كما تنفصل نقطة من
الماء من البركه ويكون فيه كل خواص ماء البركه واعلى
انواع الحيوانات الانسان اجزائه متخالفة غير متماثلة لكل

جزء منها صورة خاصة به ولكنها غير مستقلة بل يتوقف بعضها على بعض . اليد لا تعيش وحدها والقلب لا يعيش وحده وهكذا جماعات الناس كانت اول عهدها مؤلفة من افراد متماثلين كل واحد مثل الاخر في النسبة الى المجتمع ولا يتوقف احدهم على الاخر في معيشته فيصنع طعامه ويبني بيته ويدافع عن نفسه ثم تولدت الفروق فصار بعضهم حكاماً وبعضهم جنوداً وبعضهم حراثاً وبعضهم صناعاً وتوقف بعضهم على بعض فلا غنى الملك عن الجنود ولا للصانع عن الحارث الخ وقد اتصل (سبنسر) الى هذه النتائج قبل (سنة ١٨٥٠) ثم لما اطلع بعد سنين على الناموس الذي وصل اليه (فون بير) وهو ان الحياة (كذا) ميل من التماثل الى التباين رأى في هذا اللفظ المختصر ما يعبر عن مواده كله فاعتمد عليه الخ هذا ما نقله بعض تلامذته واظنه صاحب مقالة حياة (سبنسر) وفيه سهو ظاهر لان تعريف (فون بير) الذي ذكر انه اطلع عليه بعد سنين واعتمد عليه هو الذي حكم عليه اولا بانه ناموس الارتقاء العام ثم عدل عنه لدى امعان النظر الى تعريفه المطول المعضل المتقدم ثم ان هذا الحد واكثر ما مر في كلامه لا يصلح ان

يكون تفسيراً للارتقاء وانما هو استقراء لا يسلم به الا بعد معرفة معنى الارتقاء والا فكيف يعلم ان الاسفنجيات مثلا ادون الحيوانات والحيوانات العالية ارقى من سائر النبات ليعرف صحة ما ذكره واطراد الحد الذي عول عليه . والا فلو كانت للقطعة من الذهب ولملء الكف من الماء حياة وقوى نفسية كما للحيوانات الراقية لكانتا راقيتين مثلها وما ضرهما تماثل اجزائهما كما انها لولا حياتها وقواها لكانت من الجماد كالذهب والماء ولم ينفعها تباين اجزائها ولو كان للحيوانات الهلامية مثل القوى التي لذوات الاثدى لكانت معها في مرتبتها بل كانت افضل منها وليت الانسان وهو انسان كان مثلها لا يموت ولو قطع قطعات وكان كل جزء منه قابلاً لابقاء النسل ليكون ابعد من الخطر وعن انقطاع نسله بالعقر والعنن ومثله الكلام في المثال الذي ضربه من الحياة الاجتماعية اذ لو كان كل فرد من العائلة يصنع جميع حاجياته بنفسه مثل ما يصنعه المجموع بعد تقسيم الاعمال لكان ذلك كمالاً فيه وارتقاء له لا انحطاطاً كما انه لو اتى المجتمع بصنائعه بعد تقسيم الاعمال بما لا يزيد حسناً وكما لا على ما يصنعه الفرد لم يكن ذلك

ارتقاء له اذاً لجميع ماذكره لايجديه الا اذا ضم اليه ناموس
تقسيم الاعمال ولا يصلح ذلك الناموس لتعريف الارتقاء
الا اذا جبر نقصه بقوله لزيادة اتقانها ولو عول عليه وحده
لكان فيه كفاية عن ساير كلامه وغنى عن تعريف (بير)
الذى اعتمد عليه وعن تعريفه المطول الذي عدل اليه
ولكان تعريفاً جامعاً وحداً مقبولا عليه طلاوة حدود العلوم
العقلية ورونق تعريفات العلوم العالية ولكن يبقى فيه مع
ذلك موقع للسوأل عن المراد بالاتقان المذكور ونحوه من
تعبيراتهم المختلفة لفظاً والمتفقة في الدلالة على ان الاعمال
التى يأتى بها عضو واحد تكون دون التى يأتى بكل منها
عضو مستقل . وان الاعمال بعد تقسيم الوظائف تكون
اتم واحسن . وهذا معنى معقول وصحيح في الجملة وظاهر
في غير محل البحث . ولكن ماذا يراد به في اعضاء الاحياء
وما النتيجة التى تحصل للحى الذى تتخصص لكل وظيفة
عضو منه . وما الذي استفادته الحيوانات الراقية التي
تقسمت فيها وظائف اعضائها زيادة على ما استفادته غيرها
اكبر الجسم ام قوة البدن واين الهرة المسكينة فيهما من
الاسماك الكبيرة والتماسيح الهائلة بل ومن الاخطوط التي

منه جبابرة عظيمة قوية تقلب القوارب بمن فيها وتفتك
بالاسود الضوارى ان ظفرت بها . ام الكمال في نفس الوظيفه
التى تحصل من العضو وهذا الانسان الذى انقسم نوعه الى
ذكر وانثى وخصصت لكل منها اعضاء للتوليد لايخلف
الانسان الا بشبهه من نوعه وهذا حاصل بعينه لجميع الحيوانات
الدانية التى تبقى انواعها بحصول زيادة في جسمه او تقسيمه
نفسه الى شطرين اذ كل حيوان يخلف نسلا نسبته اليه
كنسبة نسل الانسان الى الانسان وهل الحاصل لذوات
الرئة والكليتين الا النفس النتيجة الحاصلة لغيرها من التنفس
بمقدار مايلزمه وافراز الفضول التى في بدنه .

اذا فلا معنى للارتقاء الجسمى في الاحياء بحيث يصح به
هذه المراتب التى وضعوها بل لا يعتمد فيه على معنى من
معانيه الا وجدت في الاحياء الدانية ما هو ارقى من بعض
الاحياء الراقية . ولا يصح ايضاً ان فسر بالقوة في الحواس
الظاهرة فالانسان الذى لاينازع احد منهم في انه ارقى جميع
الاحياء دون الكلب في قوة الشم ودون العنقاء في حدة
البصر .

وان عول على كمال العقل والنفس فانعم به كمالاً وحبذا به
ارتقاء وهذا هو الشرف الباذخ والمجد الراسخ والكمال الذى
لايضر معه نقصان الجسم ولا يجبر نقيصته بتامية البدن .
ولكنك تعلم ماذا يلحق الحلقات التى رتبوها للاحياء
والمراتب التى وضعوها للارتقاء وكيف يتقدم (بناء على
هذا المعنى) بعض الحشرات الدانية على جملة من الحيوانات
اللبونة الراقية . هذه النملة الحقيرة تتعاون افرادها على
تحصيل رزقها وتدخر قوة شتائها في صيفها وتستعمل في امرها
ضروباً من الحيل التى يعجب العقل الانساني منها . ومنها
ماتغزو اعدائها في بلادها ويتخذ منهم اسراء للخدمة وتخصص
الوظائف بين افرادها والوظائف الجسمية منها غير تامة
التخصيص فتفرد صنفاً للولادة وصنفاً للخدمة وصنفاً
للجندية وتبنى في قراها طبقات لكل صنف طبقة يختص
به وتضع على ابوابها الحراس فمن يقيس هذا الحيوان الذكي
بالشاة التى يضرب المثل ببلاهتها .

وايضاً ان كان هذا معنى الارتقاء فلماذا هذا الالحاح على دفع
هذا الحاجز العظيم بين الانسان والحيوان تارة برفع الحيوان
وبخفض الانسان تارة اخرى . فترى يتتبع احدهم الحكايات

المنقولة في نباهة الحيوان . فاذا سمع بان سرباً من الميامين
قطع وادياً فهاجمت مؤخره الكلاب فارتدت كبار مقدمه
فصرخت بالكلاب فابعدتها . زعم انه وجد ثمرة الغراب
وازاح به الحد الفاصل بين العجماوات والانسان . ولايدرى
المسكين ان النباهة في كثير من اصناف الحيوان بل في
كلها كل بمقداره امر لاينكره احد وقد صنف المتقدمون
فيها كتباً ضمنوها حكايات اهونها اعظم من هذه الحكاية
الباردة التى فرح بها . ولو كان عصرهم كهذا العصر يهتم
فيه بتكثير اسامى العلوم لرأيت في بودجتها علم نباهة
القرد وعلم نباهة الفرس و.و . ويتتبع ايضاً احوال القبائل
المنحطة ويجمع الفضايح التى ارتكبها بعض افراد البشر
من وأد البنات والقساوة في معاملة النساء . ولا يعلم بان
المشاهدة تكفي عن الحكاية وفي الدراية مايغني عن الرواية .

ونحن انشاء الله نوضح لك المقام بوافي البيان ونختم هذا
الجزء من الكتاب بما افتتحناه به من الدفاع عن شرف
الانسان ونقول ان مايصدر من الحيوان صدره قوة اخرى
غير القوة العاقلة التى للانسان بل هى قسم من القوى
الدماغية يسمى (انستنكت) الادراك المخصوص بكل

حيوان . وهو ما يفعل الحيوان به عملاً من غير روية وفكر
وهي توجد قوية في الحيوان وقد توجد في الانسان ولكن
ضعيفة مغلوبة لعقله كما قال مترجم كتاب الطب (لكوزل)
الفرنساوي وقال ان للطبيعي منه ثلاث صفات (١) ان العمل
الصادر عنه ليس مسبباً عن التجربة والتعلم كنسج
العنكبوت بيته والطاير عشه. (٢) انه لا ترقى فيه فما ينسجه
العنكبوت في آخر عمره كالذي نسجه في اوله بل الذي
يبنيه العنكبوت الان كالذي بناه آباته في قديم الزمان.
(٣) انحصاره في ذلك العمل فالعنكبوت الذي ينسج
باتقان يعجز عن غيره من الاعمال بل قال (بوفن) انه دون
غيره في ساير الاعمال.

وهذه القوة مباينة مع القوة العاقلة التي للانسان .
هذا ما قاله مترجم الكتاب المذكور وظاهره انه قد نقله
عن هؤلاء الفلاسفة ارباب العلوم الاختبارية الذين يعتمدون
هؤلاء عليهم وترى (كرزل) كثيراً ما يفرق في الاحكام
بين هاتين القوتين ويجعلهما امرين مختلفين .

اما انا فلم يتضح لي بعد حقيقة هذه القوة والانصاف
انه لا يمكن الجزم بتباينتها مع القوة العاقلة الانسانية بمجرد

هذه الاختلافات الثلاثة التي ذكرها ـ الا ان
يكون هناك وجوه واختبارات غيرها لم اطلع عليها ـ
اذ لا دليل على ان الحيوانات تفعل ذلك بغريزة فيها من
غير تعلم فلعلها يتعلم ذلك من اماتها كما نشاهد ذلك
من الطيور فانها لا تزال تطير على مرء من افراخها وتدربها
على الطيران وتحملها حتى تستقل الافراخ به فتطير معها
وكذلك الصفة الثانية اذ لعل السبب فيه عدم التربية
وجود القوة العاقلة وانتهائها الى اقصى حدها في الحيوان
ومثل هذا مشاهد في كثير من القبائل المنحطة اذ البيت
الذي يبنيه المتوحش في آخر عمره كالذي بناه في اوله بل
لا يفرق عما ورثه من صنع ابيه وجده .

وكذلك الصفة الثالثة اذ لعل ذلك لعدم التعلم وعدم
مزاولة لاعمال الاخر كما ترى مثله في صانعي البشر اذ
الصائغ المجيد قد يعجز عن الحياكة والحايك قد لا يقدر
على غير تلك الصناعة او لعله لعدم مناسبة قوته الموهوبة
له لصنعة اخرى غير ما يعملها وترى مثل هذا الاختلاف
في اصل القوة العاقلة بين افراد البشر ايضاً اذ منهم من
يدرك ادق المسائل من الطبيعيات ويعجز عن اوضح

الرياضيات او ينظم احسن الشعر واجوده ويتبلد فهمه عن
فهم مسئلة عقلية وتعجز مقدرته عن صناعة جزئية .

ولكن جميع ذلك غير مضر بالشرف الذى خص به
نوع الانسان ولا نافع لما يرومه الخصم من دفع الحاجز بينه
وبين الحيوان بعد ما علم ان القوة التى توجد في الحيوان
متباينة كانت مع القوة العاقلة في حقيقتها ام غير مباينة
محدودة قاصرة لا تتجاوز المحسوسات ولا يأتى منها الا
ابسط الصناعات واين هى من عقل الانسان الذي ادنى
خطواته اعلى المعقولات الثانوية واحد جزئيات مدركاته
ادق الاحكام الكلية ومن صنائعه هذه الميكانيكيات
البديعة التى يضيق عن وصفها نطاق البيان ويتكفل
بابدع منها مستقبل الزمان .

قال (لانج) الانكليزى . وهو احد ارباب هذه الفلسفة
ما الفظه فرق شاسع بين الانسان وهذه العجماوات لان القوى
العقليه والادبيه لاترتقى فيها ويظهر انها غير قابلة للارتقاء.
وهى ترتقي في الناس الى ماشاء الله تعالى مهما كانوا منحطين
ولايعرف من الناس من لاقدرة له على النطق اولا معرفة له
بعمل الادوات واستخدام المواد والقوات الطبيعية لاغراضه.

وذكر بعده فصلا يتعلق بالفرق بين الانسان والعجماوات
من جهة النطق وقال بعده . واما من جهة عمل الادوات فما من
قبيله من قبائل الناس الا وهى تستخدم الات مختلفة
للهجوم والدفاع ولبعض الاعمال . واما ارقى انواع القرود
فلم تتجاوز حد استعمال الاشياء الطبيعية لاغراض محدودة
فيجلس بجانب النار يصطلي ولكنه لايعرف ان يضرمها ولا
ان يزيدها حطبا لكيلا تنطفي . وفي بستان الحيوانات
(بلندن) قردان يأخذان مفتاح قفصهما من الخادم ويفتحان
الباب ويخرجان منه ولكن لم يعلم ان قردا من القرود صنع
مفتاحا مهما كان نوعه وغاية ماتعمله القرود انها تستعمل
اغصان الاشجار والحجارة ترمى بها الاعداء وتكسر بها
الجوز. فاذا قيل باتحاد القوتين في الاصل فهو كما قال ابو الطيب :
(فان المسك بعض دم الغزال) او كما يقال : ان اصل المحراث مما
تطبع منه السيوف الصقال فهل يضر ذلك المسك وشذاه
شذاه او السيف وحده الفاصل له حده ومضاه .

على ان للانسان سواها منحة الهية وجوهرة سماوية لاثمرة
في بيانها بعد ما كانت اسمى من ان تناله ارقى عقول المعطلين
ومعروفة حتى لدي المستضعفين من اهل الدين. واما مايزعمونه

على الانسان من انحطاط بعض اصنافه وافراده فهو من عدم فهمهم مرادمن يقول بارتقائه وظنهم انهم يريدون به ان جميع افراد البشر ارقى واعقل من جميع افراد الحيوانات. فلفقوا مالفقوا واسدوا بروداً لعار الانسان والحموا.

وما المراد الا ان الانسان اذا بقي على اصل خلقته ولم تعترض عليه الافات ولم يفسد فطرته بتابعة الشهوات وتربى بالتربية الكاملة وسعى في اقتناء الفضائل واطاع الدين في اجتناب الرذائل فانه يبلغ المرتبة التي خصوها بالانسان فلا نقض بمن اصابه خلل في دماغه فوقفت قواه العقلية او اصابته امراض عاقته عن التربية. اولم يخضع لقانون العقل والدين وجعل وكده شهوات نفسه والقي زمامه الى وساوس صدره. وهذا المعنى لا يخص احباء الانسانية بل لا بد لهو لاء من القول به. والاعتذار بمثله لان ارتقاء الانسان وبعد المسافة بينه وبين الحيوان الان لا ينكره احد منهم. فما هذا اللجاج في امر واضح وجهه والالحاح على نقض يرد عليهم مثله اما هذه الفضائح البشرية التي يتبعها بعضهم ويذكرها فاذلك الا لعدم الانقياد للشرايع التي ماشرعها واضعها الا لكف الناس عنها وعن امثالها وردعهم عن متابعة مافيهم من

القوى البهيمية وبيان ان من يتبعها من نوع الانسان فهو اخس من ادنى الحيوان. واما عدم قابلية افراد من الانسان للترقيات العقلية ونحوها فما ذلك الا لعرض اتفق له او مرض ابتلى به. وكلامنا في البشر المستوى الخلق الصحيح البنية والاعضاء. وما انحطاط بعض الطوائف الا لعدم التربية الموجبة لظهور قواهم الكامنة ولو اردنا نقل الشواهد على ذلك لافضى بنا الى الاسهاب وحسبك شاهداً ما قرع سمعك مراراً وقرئت في الكتب والمجلات من انحطاط القبائل في اواسط افريقيا. ومنهم اهالى (اوغندا) ولعله قد بلغك من انحطاطهم ما قضيت به العجب. وقد ظهر من تقرير جمعيات المبشرين هناك في هذا العصر ما لفظه على ما وجدنا (ان الاوغندى) لا يقل ذكاء عن ارقى الامم الاوروبية. ومن اقوالهم ان ذكاء (الاوغندي) مثل ذكاء (الانكليزى) وانهم يتعلمون القراءة والكتابة بوقت قصير جداً ويفهمون الحساب بسرعة عجيبة وفيهم ميل شديد الى تفهم الحقائق فاذا سئل احد التلامذة معلمه مسئلة ولم يكن له الوقت الكافي للجواب عليها في المدرسة لحقه الى بيته والح عليه في الاستفهام. قال الكاتب ولا

يفضل (الاوغندى) على الافرنجى في الذكاء فقط بل
هو ارقى منه في الشعور الادبي الخ .

وهؤلاء الزنوج الذين اتفقوا على انحطاطهم حتى حكم
علم اصلاح النسل بابادتهم واخصائهم لا تكاد تفرق كثيراً
بين من تربى منهم وبين البيض في العقل والذكاء بل وفي
تعلم العلوم والصنايع ولا يزال يوجد فيهم النوابغ المبرزون
كما يوجد في غيرهم فاستخبر ان شئت عن ذلك صفحات
التاريخ وكتب التراجم لتخبرك بمثل كافور الاخشيدى
من خير الملوك سيرة واحسنهم سياسة ولا يقاس في ذكائه
وكياسته ودهائه وسياسته بمواليه الاخشيديين الراقين
القوقاسين .

ولتنبئنك بمن لا يعد كثيرة من العلماء المبرزين في الصنايع
والفنون وقد افردت كتب لترجمة رجالهم وشرح احوالهم .
وان شئت اكتفيت بما تشاهده من الذى يوتى الي بلادك
فانك ترى اكثرهم بعيد التربية ومعاشرة البيض لا يفرق
عنهم كثيراً في العقل والذكاء ولا يمضى على كثير منهم زمن
طويل حتى يصبح مستخدماً لجماعة من الاحرار وحاكماً على
قوم من البيض واراك لا يسعك بعد ذلك الا قبول شهادة

العدلين الاختبار والاعتبار والحكم بان انحطاط بعض
الشعوب ليس لنقصان استعدادهم بل لعدم التربية الكاملة
لهم ولو تربوا تربية البيض لكانوا مثلهم اوادون قليلاً منهم
وان شئت ان تعرف مقدار اثر التربية وان كان مما لا يجهله
مثلك .

ففى اهالى اروبا لك اعظم شاهد واحسن مثال فانظر ما تخبرك
عنهم صفحات التاريخ قبل اليوم ببضع قرون وما هم
عليه الآن .

هذا آخر ما اردنا اثباته في الجزء الاول من هذا الكتاب
ونحن نختمه بما بدأناه به من الحمد والصلوة .

تم بيد مؤلفه كان الله له يوم السبت عاشر شهر ربيع الثاني
سنه (١٣٣٠) هجريه .

تنبيه

سقط من النسخه التي اعددناها للطبع بحث يتضمن النظر
في ناموس الوراثه والمقايسه بين مذهبي (دارون)
و (وسمن) فيها ونحن نثبته في محله انشاء الله
اذا اعدنا طبع الكتاب

(فهرس الجزء الاول من كتاب نقد فلسفة دروين)

(ودحض شبهات المعطلين)

(المقالة الاولى)

(المقالة الثانية)

(المقالة الثالثة)

